

ديوان

مجنون ليلى

جمع وترتيب
عالم زمانه وفريد عصره وأوانه

أبي بكر الوائلي

بتحقيق ورشاح
جلال الدين السجستاني

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م - ٨٢٧

ديوان

مكتون في ليل

جمع وترتيب

عالم زمانه وفريد عصره وأوانه

أبي بكر الوالبي

بتحقيق وشيخ

جلال الدين الحسيني

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م - ٨٣٧

فأجابته ليلي وهي باكية لما سمعت شعره :

وَكُلُّ مُظَاهِرٍ لِلنَّاسِ بَغْضًا وَكُلُّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينٌ^(١)
تُخْبِرُنَا الْعَيُونُ بِمَا أَرَدْنَا وَفِي الْقَلْبَيْنِ شَمٌّ هَوَى دَفِينٌ^(٢)

فلما سمع مقالاتها خر مغشياً عليه ، فلما أفاق قال :

صَرِيحٌ مِنَ الْحُبِّ الْمُبَرِّحِ وَالْهَوَى وَأَيُّ فَتَى مِنْ عِلَّةِ الْحُبِّ يَسْلَمُ
فَقَطَّنَ جَلَسَاؤُهُ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَأَخْبَرُوا أَبَاهَا ، فَحَجَبَهَا عَنْهُ وَعَنْ سَائِرِ
النَّاسِ ، وَقَدَّمَهُ إِلَى السُّلْطَانِ ، فَأَهْدَرَ السُّلْطَانُ دَمَهُ إِنَّ هُوَ زَارَهَا ، فَلَمَّا
حَجَبَتْ عَنْهُ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَلَا حُجِبْتُ لَيْلَى وَآلَى أَمِيرُهَا عَلَى يَمِينِنَا جَاهِلًا لَا أَزُورُهَا^(٣)
وَأَوْعَدَنِي فِيهَا رَجَالٌ أَبُوهُمْ أَبِي وَأَبُوهَا خُشِّنَتْ لِي صُدُورُهَا
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ غَيْرَ أَنِّي أَحَبُّهَا وَأَنْ فُؤَادِي عِنْدَ لَيْلَى أَسِيرُهَا^(٤)
وَإِنِّي إِذَا حَنَنْتُ إِلَى الْإِلْفِ إِلْفُهَا هَفَا فُؤَادِي حَيْثُ حَنَنْتُ سَحُورُهَا
ثم إنه لما اشتهر بحبها وابتلى ، قام أبوه وإخوته وبنو عمه وأهل بيته
فأتوا أبا ليلي ، وسألوه بالرحم والقرباة والحق العظيم أن يزوجهما منه ،

(١) في الأغاني « كلانا مظهر . . . » .

(٢) » » » « تبلغنا العيون . . . » ورواية أخرى لهذا البيت :

وأسرار الملاحظ ليس تخفى إذا نطقت بما تخفى العيون

(ج ٢ ص ١٦) .

(٣) في رواية الأغاني « على يميننا جاهدا . . . » .

(٤) » » » « وأن فؤادي رهنها وأسيرها » .

وأخبروه أنه ابتلى بها ، فأبى أبو ليلى ، ولج وحلف ، وقال : والله لا حدثت
العرب أنى زوجت عاشقاً مجنوناً . فأقبل الناس إلى أبي المجنون ، وقالوا له :
لو أخرجته إلى مكة فعوذته بيت الله الحرام ، لعل الله يعافيه مما ابتلى به !
فأخرجه أبوه إلى مكة ، وهما راكبان جملا في محمل ، فلما قدما مكة قال له
أبوه : يا قيس ! تعلق بأستار الكعبة ، ففعل ، فقال : قل اللهم أرحنى
من ليلى وحبها ، فقال : اللهم من على بليلى وقربها ! فضربه أبوه ،
فأنشأ يقول :

يَا رَبِّ إِنَّكَ ذُو مَنٍّ وَمَغْفِرَةٌ بَيْتٌ بِعَافِيَةٍ لَيْلَ الْحَبِينَا
الذَّاكِرِينَ الْهَوَى مِنْ بَعْدِ مَارَقَدُوا السَّاقِطِينَ عَلَى الْأَيْدِي الْمَكِينَا
يَا رَبِّ لَا تَسْلُبْنِي حُبَّهَا أَبَدًا وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَا
وقال أيضاً :

دعا المحرمون الله يستغفرونه بِمَكَّةَ شُعْنَا كِي تُمَحِّي ذُنُوبَهَا
وناديت : يَا رَحْمَنُ ! أَوْلَ سُؤْلَتِي لِنَفْسِي لَيْلَى ثُمَّ أَنْتَ حَسْبِيهَا
وإن أعط ليلى في حياتي لم يتب إِلَى اللَّهِ عَبْدٌ تَوْبَةً لَا أُتُوبُهَا
يَقَرُّ لِعَيْنِي قُرْبُهَا وَيَزِيدُنِي بِهَا عَجَبًا مَنْ كَانَ عِنْدِي يَعْيبُهَا
وكم قائل قد قال تب فعصيته وَتِلْكَ لَعْمَرَى خَلَّةٌ لَا أُصِيبُهَا
وما هجرتك النفس ياليل أنها قَلَّتْكَ وَلَكِنْ قَلَّ مِنْكَ نَضِيبُهَا
فيا نفس صبراً لست والله فاعلمي بِأَوَّلِ نَفْسٍ غَابَ عَنْهَا حَبِيبُهَا

فلما سمع أبوه هذه الأبيات رق له ، فأخذه بيده نحو منى ، يريد رمي
الجمار ، فبينما هو بمنى إذ سمع مناديا ينادى من بعض تلك الخيام ، ياليلي ،
نحراً مغشياً عليه ، واجتمع عليه قومه ، وأبوه باك حزين ، فأفاق وهو
مصفر اللون ، وأنشأ يقول :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيْف من منى	فَهَيَّجَ أَحْزَانَ الْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما	أُطَارَ بِلَبِّي طَائِراً كَانَ فِي صَدْرِي (١)
دعا باسم ليلى أسخن الله عينه	وَلَيْلَى بِأَرْضِ الشَّامِ فِي بَلَدٍ قَفَرٍ (٢)
عرضتُ على قلبي العزاء فقال لي	مِنَ الْآنَ فَاجْزَعُ لَا تَمَلُّ مِنَ الصَّبْرِ (٣)
إذا بان من تهوى وشطَّ به النوى	قَفْرَةٌ مِّنْ تَهْوَى أَحَرَ مِنَ الْجَرِّ (٤)
وقال :	

أيا ليل ! زندق البين يقدح في صدري	وَنَارُ الْأَسَى تَرْمِي فُؤَادِي بِالْجَمْرِ
أبي جدَّتان الدهر إلا تشدَّتْ	وَأَيُّ هَوَى يَبْقَى عَلَى حَدِّتِ الدَّهْرِ !
تعزَّ فإن الدهر يجرح في الصفا	وَيَقْدَحُ بِالْعَصْرِينِ فِي الْجَبَلِ الْوَعْرِ
وإني إذا ما أعوز الدمع أهله	فَزَعْتُ إِلَى دُلْهَاءِ دَائِمَةِ الْقَطْرِ

(١) في الأغاني « أطار بليلى » .

(٢) « دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه وليلى بأرض عنه نازحة قفر » .

(٣) « من الآن فإياك لا أعزك من صبر » .

(٤) « إذا بان من تهوى وأصبح نائياً فلا شيء أجدى من حلولك في القبر » .

فوالله ما أنساك ما هبت الصبا وما ناحت الأطيّار في وضح الفجر
وما نطقت بالليل سارية القطا وما صدحت في الصبح غادية الكدر
وما لاح نجم في السماء وما بكت مطوّقة شجّوا على فنن السدر
وما طلعت شمس لدى كلّ شارق وما هطلت عين على واضح النحر
وما اغطوطش الغريب واسودّ لونه

وما مرّ طول الدهر ذكرك في صدري (١)
وما حملت أنثى وما خبّ ذعلب (٢)
وما زحفت تحت الرّحال بركبها وما مفتح الأذى في لجج البحر
فلا تحسبي ياليل أني نسيتكم قلاص تؤم البيت في البلد القفر
وأن لست مني حيث كنت على ذكر

أبكي الحمام الورق من فقد إلفه وتسلو ومالي عن أليفي من صبر
فأقسيم لا أنساك ما ذرّ شارق وما خبّ آل في معلّمة قفر
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة أناجيكم حتى أرى غرة الفجر
لقد حملت أيدي الزمان مطيّي على مرّ كعب مستعطل الناب والظفر

فلما سمع أبوه هذه الأبيات أخذ بيده إلى محفل من الناس ، فسألهم
أن يدعوا الله تعالى له بالفرج ، فلما أخذ الناس في الدعاء أنشأ يقول :

(١) غطش الليل يغطش : أظلم . الغريب : الغراب الأسود الحالك السواد

(٢) الذعلبة بالكسر : الناقة السريعة والنعامة . الأذى : الموج .

ذَكَرْتُكَ وَالْحَجِيجُ لَهُمْ فَحِجُّ
بِمَكَّةَ وَالْقُلُوبُ لَهَا وَجِيبُ
فَقُلْتُ وَنَحْنُ فِي بَلَدٍ حَرَامٍ
بِهِ لِلَّهِ أَخْلَصْتُ الْقُلُوبُ
أَتُوبُ إِلَيْكَ يَا رَحْمَنُ مَا
عَمِلْتُ فَقَدْ تَظَاهَرَتْ الذُّنُوبُ
فَأَمَّا مِنْ هَـوَى لَيْلَى وَتَرْكِي
زِيَارَتِهِمَا فَإِنِّي لَا أَتُوبُ
وَكَيْفَ وَعِنْدَهَا قَلْبِي رَهِينُ
أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْهَا أَوْ أُنِيبُ!!
وعن أبي مسكين قال :

خرج رجل منا ، حتى إذا كان بموضع يقال له بئر ميمون ، إذ هو
بجماعة في ذرى جبل ، وإذا فتى قد تعلقوا به كأحسن ما يكون من الرجال
وأجملهم ، يريد أن يرمى بنفسه من أعلى الجبل ، غير أنه مصفر اللون ،
ناحل البدن ، وهو يقول :

لَقَدْ هَمَّ قَيْسٌ أَنْ يَرْجَّ بِنَفْسِهِ
وَيَرْمِي بِهَا مِنْ ذِرْوَةِ الْجَبَلِ الصَّعْبِ
فَلَا غَرْوَ أَنْ الْحُبَّ لِلْمَرْءِ قَاتِلٌ
يَقْلِبُّهُ مَا شَاءَ جَنبًا إِلَى جَنْبٍ
أَنَاخَ هَـوَى لَيْلَى بِهِ فَأَذَابُهُ
وَمَنْ ذَا يُطِيقُ الصَّبْرَ عَنْ مُحْمِلِ الْحُبِّ!
فَيَسْقِيهِ كَأْسَ الْمَوْتِ قَبْلَ أَوَانِهِ
وَيُورِدُهُ قَبْلَ الْمَمَاتِ إِلَى التُّرْبِ

قال : فسألت عنه ، فقيل هذا مجنون بنى عامر ، أخرجه أبوه إلى هذا
الجبل ، يستقبل الريح التي تهب من ناحية نجد ، ويكره أن يخفيه ،
فيرمى بنفسه من الجبل ، فلو شئت دنوت منه ، فأخبرته أنك قدمت من
ناحية نجد ، فتقدم إليه ، فاعله ينزل من الجبل ، قلت : نعم ، فدنوت منه ،
فقالوا : يا أبا المهدى ! هذا رجل قدم من ناحية نجد ، قال : فتتنفس
الصُّعْدَاءُ ، حتى ظننت أن كبده تصدعت ، ثم جلس يسألني عنها وعن

فلو تزوجت واحدة منهم نرجو أن يزول عنك بعض ما بقلبك من حبها ،
فأنشأ يقول :

لقد لآمني في حُبِّ ليلى أقاربي يقولون ليلى أهل بيت عداوةٍ
يقولون ليلى أهل بيت عداوةٍ أرى أهل ليلى لا يريدون بيعها
أرى أهل ليلى لا يريدون بيعها قضى الله بالمعروف منها لغيرنا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا قسّمت الهوى نصفين بيني وبينها
قسّمت الهوى نصفين بيني وبينها ألا يا حمامات العراق أعنّني
ألا يا حمامات العراق أعنّني يقولون ليلى بالعراق مريضة
يقولون ليلى بالعراق مريضة فشاب بنو ليلى وشاب ابن بنتها
فشاب بنو ليلى وشاب ابن بنتها على لئن لاقيت ليلى بخلاوة
على لئن لاقيت ليلى بخلاوة فيارب إذ صيرت ليلى هي المنا
فيارب إذ صيرت ليلى هي المنا

(١) ذكر البيت الأول والثاني من هذه القصيدة في الأغاني ج ٢ : ص ٣٨ بين
بيتين آخرين على هذه الصورة :

يقول أناس : علّ مجنون عامر يروم سلوا ؟ ا قلت : أتى لمايا !...

وقد لآمني أخى
يقولون
ولو كان في ليلى شذا من خصومة للويت أعناق المطى الملاويا

ويحتمل أن يكون سبب تسميته بالمجنون هو البيت الأول الذي نقلناه عن
الأغاني ، وكذلك لبيت آخر :

قضاها لغيري وابتلاني بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا

وإلا فبغضها إلى أهلها
يلومون قيساً بعد ما شفه الهوى
فيا عجباً ممن يلوم على الهوى
ينادى الذى فوق السموات عرشه
يبیت ضجیع الهم ما يطعم الكرى
بساحرة العينين كالشمس وجهها
فإني بليلى قد لقيت الدواهي
وبات يراعى النجم حيران با كيا
فتى دنفاً أمسى من الصبر عاريا
ليكشف وجداً بين جنبيه ثاوي
ينادى إلهى قد لقيت الدواهي
يضى سناها فى الشجى متساميا

قال : فلما سمعوا مقالته أسمعوه ما يكره ، فمر على وجهه آسياً مهموما ،
جزيناً متفكراً ، يتفكر فى أمرها ، حتى منعه ذلك من الطعام والشراب ،
وترك محادثة الناس ، وصار فى حد يرحمه من رآه من عدو وصديق فقال :
ما بال قلبك يا مجنون قد هلعا
الحب والعشق سيطرا من دمي لهما
طوبى لمن أنت فى الدنيا قرينته
بل ما قرأت كتاباً منك يبلغنى
أدعو إلى هجرها قلبى فيتبعنى
لا أستطيع نزوعاً عن مودتها
من حب من لا ترى فى وصلها طمعا^(١)
فأصبحت فى فؤادى ثابتين معا^(٢)
لقد نفى الله عنه الهم والجزعا
إلا ترقق ماء العين أو دمعا
حتى إذا قلت هذا صادق نزعا
ويصنع الحب بي فوق الذى صنعنا

(١) فى رواية الأغاني :

قد خلعا فى حب من لا ترى فى نيله طمعا

(٢) فى رواية الأغاني :

الحب والود نبطا بالفؤاد لها فأصبحت فى فؤادى ثابتين معا

كم من دنيء لها قد كنت أتبعه ولو صحا القلب عنها كان لي تبعاً
وزادني كلفاً في الحب أن منعت أحب شيء إلى الإنسان مأمناً
إقر السلام على ليلى وحق لها مني التحية إن الموت قد نزعاً
ألمات أم هو حى في البلاد فقد قل العزاء وأبدى القلب ماجزعا
وقيل : كان المجنون بموضع يسمى الوادين ، وكان يجلس بينهما ،
ويخلو في بيته ، فخرج يوماً يريد هما ، فلما صار قريباً من الوادين
أنشأ يقول :

ألا لا أرى وادى المياه يثيب ولا النفس عن وادى المياه تطيب
أحب هبوط الوادين وإننى لمشهر بالواديين غريب
أحقا عباد الله أن لست وارداً ولا صادراً إلا على رقيب
ولا زائراً فرداً ولا في جماعة من الناس إلا قيل أنت مرئوب
وهل ريبة في أن تحن نجية إلى ألفها أو أن يحن نجيب
وإن الكتيب الفرد من جانب الحمى

إلى وإن لم آتو لحبيب
ولا خير في الدنيا إذا أنت لم ترز حبيباً ولم يطرب إليك حبيب
وذكر أن أباه الملوّح أتاه ، وحمله إلى بابل ليعالجه ، وذلك قبل نزول
مانزل به من الحب الشديد وسورة العشق ، فحمله على ناقته ، فلما أمعنا
في السير ذكر المجنون ليلى ، فلم يتمالك أن قال :

تَمَتَّعَ مِنْ ذُرَى هَضَبَاتِ نَجْدٍ فَإِنَّكَ مُوشِيكَ أَنْ لَا تَرَاهَا
 أَوْدَعُهَا الْغَدَاةَ فَكُلُّ نَفْسٍ مفارقةٌ إذا بلغتَ مَــدَاهَا
 قَالَ فَبِكِي أَبَوَهُ رَحِمَةً لَهُ ، وَقَالَ : يَا بَنِي ! هَلْ لَكَ أَنْ تَسْأَلَ بِغَيْرِهَا ،
 فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَجِدُ إِلَى السَّأْلِ سَبِيلًا ، وَإِنِّي لَفِي أَعْظَمِ الْكَرْبِ وَالْبَلَاءِ ،
 وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

وَكَمْ قَائِلٍ لِي أَسْأَلُ عَنْهَا بِغَيْرِهَا وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ تَحْجِيبُ
 فَقُلْتُ وَعَيْنِي تَسْتَهْلُ دُمُوعُهَا وَقَلْبِي بِأَكْنَافِ الْحَبِيبِ يَذُوبُ
 لَئِنْ كَانَ لِي قَلْبٌ يَذُوبُ بِذِكْرِهَا وَقَلْبٌ بِأُخْرَى ، إِنَّهَا لِقُلُوبُ
 فَيَا لَيْلَ جُودِي بِالْوِصَالِ فَإِنِّي بِحُبِّكَ رَهْنٌ وَالْفَوَادُ كَتِيبُ
 لَعَلَّكَ أَنْ تُرَوِّى بِشُرْبٍ عَلَى الْقَدَى وَتَرْضَى بِأَخْلَاقٍ لَهَا خُطُوبُ
 وَتَبْلِي وَصَالَ الْوَاصِلِينَ فَتَعْلَمِي خَلَّاتُ مَنْ يُصِفِي الْهَوَى وَيَشُوبُ
 لَقَدْ شَفَّ هَذَا الْقَلْبُ أَنَّ لَيْسَ بَارِحًا لَهُ شَجَنٌ مَا يُسَبِّطُ طَاعُ قَرِيبُ
 فَلَا النَّفْسُ تَخْلِيهَا الْأَعَادِي فَتَشْتَفِي وَلَا النَّفْسُ عَمَّا لَا تَنَالُ تَطِيبُ
 لَكَ اللَّهُ إِنِّي وَاصِلٌ مَا وَصَلْتَنِي وَمُشْنٌ بِمَا أَوْلَيْتَنِي وَمُثِيبُ
 وَأَخِذْ مَا أُعْطِيتَ صَفْوًا وَإِنِّي لَأَزُورُ عَمَّا تَكْرَهِينَ هَبِيبُ
 فَلَا تَتْرُكِي نَفْسِي شُعَاعًا فَإِنَّهَا مِنْ الْوَجْدِ قَدْ كَادَتْ عَلَيْكَ تَذُوبُ
 وَأَلْقَى مِنَ الْحَبِّ الْمَبْرَحَ سَوْرَةً لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَيْبُ
 وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِيكَ حَتَّى كَأَنَّمَا عَلَى بَظْهِرِ الْغَيْبِ مِنْكَ رَقِيبُ

قال الوالي :

بلغنى أنه دخل بابل ، واجتمع إليه المطببون ، وأقبلوا يسقونه شربة
بعد شربة ، ويكوونه ، فلما أكثروا عليه أنشأ يقول :

دَعَوْنِي دَعَوْنِي قَدْ أَطْلَمْتُ عَذَابِيَا
دَعَوْنِي أُمْتُ غَمًّا وَهَمًّا وَكُرْبَةً
دَعَوْنِي بَغْمِي وَانْهَدُوا فِي كَلَاءَةٍ
وَرَاءَكُمْ إِنِّي لَقِيتُ مِنَ الْهُوَى
بِرَأْيِي شَوْقٌ لَوْ بَرَضُوهُ لَهْدَهُ
سَقَى اللَّهُ أَطْلَالَ بِنَاحِيَةِ الْحَمَى
مَنَازِلُ لَوْ مَرَّتْ عَلَيْهَا جَنَازَتِي
فَأَشْهَدُ بِالرَّحْمَنِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا
لِحَاكِ اللَّهِ أَقْوَامًا يَقُولُونَ إِنَّا
فِيهَا بِالْقَلْبِ هَدَاهُ الشَّوْقُ وَالْهُوَى
أَلَا لَيْتَ عَيْنِي قَدْ رَأَتْ مَنْ رَأَىكُمْ
وَهَيْهَاتَ أَنْ أَسْلُو مِنَ الْحُزْنِ وَالْهُوَى
فَقُلْتُ نَسِيمَ الرِّيحِ أَدَّتْ حَيَّتِي
فَأَشْكُرُهُ إِنِّي إِلَى ذَاكَ شَائِقُ
مُعَذِّبَتِي ! لَوْلَاكِ مَا كُنْتُ هَائِمًا
مُعَذِّبَتِي ! قَدْ طَالَ وَجْدِي وَشَفَنِي
وَأَنْضَجْتُمْ جِلْدِي بِحَرِّ الْمَكَوِيَا
أَيَاوِيحَ قَلْبِي مَنْ بِهِ مِثْلُ مَا بِيَا
مِنْ اللَّهِ قَدْ أَقْنْتُ أَنْ لَسْتُ بَاقِيَا
تَبَارِيحَ أَبْلَتْ جِدَّتِي وَشَبَابِيَا
وَلَوْ بِثَبِيرٍ صَارَ رَمْسًا وَسَافِيَا
وَإِنْ كُنَّ قَدْ أَبْدَيْنَ لِلنَّاسِ مَا بِيَا
لَقَالَ الصَّدَى : يَا حَامِلِي انْزِلَا بِيَا
وَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ فَهُوَ دَعَا لِيَا
وَجَدْنَا الْهُوَى فِي النَّأْيِ لِلصَّبِّ شَافِيَا
وَأَنْضَجَ حَرُّ الْبَيْنِ مِنِّي فُؤَادِيَا
لَعَلِّي أَسْلُو سَاعَةً مِنْ هِيَامِيَا
وَهَذَا قِمِصِي مِنْ جَوَى الْبَيْنِ بِالْيَا
إِلَيْهَا وَمَا قَدْ حَلَّ بِي وَدَهَانِيَا
فِيَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَكُونُ تَلَاقِيَا
أَبَيْتُ سَخِينِ الْعَيْنِ حَرَّانَ بَاكِيَا
هَوَاكِ فَيَا لِلنَّاسِ قَلَّ عَزَائِيَا

معذبتى ! أوردتني منهل الردى
 خليلي هيا فأسعداني على البكا
 خليلي إني قد أرقْتُ وغمُتُ
 خليلي لو كنتُ الصحيحَ وكنْتُما
 خليلي مُدّا لي فراشي وارفعَا
 خليلي قد حانت وفاتي فاطلبَا
 وإن مت من داء الصبابة أبلغَا
 وأخلفت ظنّي واخترمت وصاليا
 فقد جهدت نفسي وربّ الثانيا
 لبرق يمان فاجلسا عللانيا
 سقيهم لم أفعل كفعلكما بيا
 وسادي لعل النوم يذهب ما بيا
 لي النعش والأكفان واستغفرا ليا
 نتيجة ضوء الشمس مني سلاميا

وقال بعضهم : بينا أنا أدور في صحراء بني تميم ، إذ مررت بقانصين
 قد قنصا ظبيا وعقلاه ، فوقفت أنظر إليهما إذا أنا بغلام قد أقبل ، كأن
 وجهه فلقة قمر ، عليه ضفيرتان تضربان خصره ، فدنا منهما ، وتأمل الظبي
 ثم أرسل عينيه بالبكاء وهو يقول :

وذكري من لا أبوح بذكره
 فقلت ودمع العين يجري بحرقة
 ألا أي هذا القانص الخشف خله
 خف الله لا تقتله إن شبيهه
 محاجر خشف في حبال قانص
 ولحظي إلى عينيه لحظة شاخص
 وإن كنت تأباه نخذ بقلائصي
 حياتي وقد أرعدت مني فرائصي

فوالله ما برح حتى اشتراه ، وخلي سبيله .

وقيل :

دخل كثير بن عبد الرحمن على عبد الملك بن مروان ، وقد قعد

للشرب ، فقال : يا كثير ! هل رأيت أعشق منك ؟ قال : نعم ،
يا أمير المؤمنين ، قال : وكيف وأنت القائل :

رُكْبَانُ مَكَّةَ وَالَّذِينَ أَرَاهُمْ يَبْكُونَ مِنْ حَرِّ الْفُؤَادِ هُمُودَا
لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتَ كَلَامَهَا خَرُوا لِعِزَّةِ رُكَّاءِ وَسُجُودَا
اللَّهُ يَعْلَمُ لَوْ أَرَدْتُ زِيَادَةً فِي حُبِّ عِزَّةٍ مَا وَجَدْتُ مَزِيدَا

قال : أخبرك يا أمير المؤمنين ! بينما أنا أسير في بعض البوادي ، في ساعة
الهجرة ، في يوم شديد الحر ، إذ رفع لي شخص في مفازة ، ليس بها
أنيس ، فذعرت منه ، ثم مات إليه ، فإذا هو شاب حسن الوجه ، جعد
الشعر ، فقلت : إنسى أنت أم جنى ؟ قال : بل إنسى ، فقلت : ما أخرجك
في هذه الساعة إلى هذه البرية ؟ قال : نصبت شركا للظباء ، قلت : وقد
قرمت إلى اللحم يا أمير المؤمنين : — أتجعل لي فيه نصيبا إن أقيمت عليك ؟ قال :
نعم ونعمة عين ، فأقيمت عنده حتى اقتنص ظبية كأحسن ما يكون من
الظباء ، ثم قبض على قرنها ، وأقبل ينظر في محاسنها ويقول :
أَيَا شَيْبَةٍ لَيْلَى لَا تُرَاعَى فَإِنِّي لَكَ الْيَوْمَ مِنْ بَيْنِ الْوَحُوشِ صَدِيقٌ ^(١)

(١) في رواية الأغاني (ج ٢ ص ٨٢) :

وياشيبه ليلي لو تلبثت ساعة لعل فؤادي من جواه يفيق
تفر وقد أطلقتهما من وثاقهما فأنت ليلي لو علمت طليق

ثم أطلقها وجعل ينظر في أثرها ويقول :

أقول وقد أطلقته من وثاقها فأنت لليلي إن شكرت عتيق
فعينك عيناها وجيدك جيدها سوى أن عظم السار منك دقيق
وكاد بلاد الله يا أم مالك بما رحبت منكم على تضيق^(١)

قال : ثم وقفت يا أمير المؤمنين ساعة ، فإذا قد علقت أخرى ، فصنع
بها ما صنع بالأولى ، ثم أطلقها وأنشأ يقول :

ألا يا شبيهة ليلى لا تراعى ولا تنسل عن ورد التلاع
لقد أشبهتها إلا خيلاً نشوز القرن أو خمش الكراع
فتعجبت يا أمير المؤمنين من صنعه ، فما كان إلا هنيهة حتى علقت

أخرى ، فأطلقها من وثاقها ، وجعل يبكي ويقول :

تروح سالماً يا شبيهة ليلى قرير العين واستطب البقولا
فليلى أنقذتك من المنايا وفككت عن قوائم الكبولا

ففاظطنى يا أمير المؤمنين غيظاً شديداً ، وقلت فى نفسى ستعلم ، ثم مكثنا
ساعة فعلمت أخرى فوثبت إليها فكسرت يدها طمعاً فى لحما فبكى بكاء

(١) فى رواية الأغاني :

تكاد بلاد الله يا أم مالك بما رحبت يوماً على تضيق

وأم مالك : كنية لىلى صاحبة الجنون ، وقد كناها فى كثير من شعره فنهى :

فان الذى أملت من أم مالك أشاب قتالى واستهام فؤاديا

خليلى إن دارت على أم مالك صروف الليالى فابغيا لى ناعيا

عاليا ، ثم قال : ويحك ! ما دعاك إلى أن أفسدت موضعا يوافقني وكنت أفتة ، ثم اغتفلني فأتى ماء كان قريبا منه فغمس فيه كساء قبله ، ثم أتى توبرة فاطفأها ثم قال : أفسدت حالي وما أراه إلا أنه مات .

فقال عبد الملك بن مروان : فأين أنت من قولك حيث تقول :

أَيَا عَزُّ لَوْ أَشْكُوَ الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي	إِلَى مَيِّتٍ فِي قَبْرِهِ لَيْكِي لِيَا
وَيَا عَزُّ لَوْ أَشْكُوَ الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي	إِلَى رَاهِبٍ فِي دَيْرِهِ لَرَثِي لِيَا
وَيَا عَزُّ لَوْ أَشْكُوَ الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي	إِلَى جَبَلٍ صَعْبٍ الذُّرَى لَا نُحْنِي لِيَا
وَيَا عَزُّ لَوْ أَشْكُوَ الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي	إِلَى ثَعْلَبٍ فِي جُحْرِهِ لَا نُبْرِي لِيَا
وَيَا عَزُّ لَوْ أَشْكُوَ الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي	إِلَى مُوْتَقٍ فِي قَيْدِهِ لَعْدَا لِيَا

قال : أشعر مني يا أمير المؤمنين الذي يقول :

إِنَّ الظُّبَاءَ الَّتِي فِي الدُّورِ تُعْجِبُنِي	تِلْكَ الظُّبَاءُ الَّتِي لَا تَأْكُلُ الشَّجَرَا
لَهْنٌ أَعْنَاقُ غِزْلَانٍ وَأَعْيُنُهَا	وَهِيَ أَحْسَنُ مِنْ أَبْدَانِهَا صُورَا
وَلِي فُؤَادٌ يَكَادُ الشَّوْقُ يَصْدَعُهُ	إِذْ تَذَكَّرُ مِنْ مَبْكُونِهِ الذِّكْرَى
كَانَتْ كدَّرَةً بِحَرِّ غَاصٍ غَائِضُهَا	فَأَسْأَلُهَا يَدَاهُ بَعْدَ مَا قَدَرَا

ويقول :

إِذَا نَظَرْتُ عَرَفْتُ الْجِيدَ مِنْهَا	وَعَيْنَيْهَا وَلَمْ نَعْرِفْ سِوَاهَا
كَرِهْنَا أَنْ نَفْزِعَهَا فَقُلْنَا	أَشْأَلُ اللَّهَ كَفَى مَنْ رَمَاهَا

قال : فمن هذا ؟ قلت يا أمير المؤمنين هو الذي يقول في قصيدته :

وَكُنْتُ كَذَّابًا حَالِصًا فِي دَائِبَةٍ وَعَيْنَاهُ مِنْ وَجْدٍ عَلَيْهِنَّ تَهْمِلُ
فَلَا تَنْظُرِي لَيْلِي إِلَى الْعَيْنِ وَانْظُرِي إِلَى الْكَفِّ مَاذَا بِالْعَصَافَةِ تَفْعَلُ

قال : ويحك ! عساه المجنون ؟ قلت : نعم ، قال فزدني من شعره

فقلت قال :

لَوْ سِيلَ أَهْلُ الْهَوَى مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ هَلْ فُرِّجَتْ عَنْكُمْ مُذْ مُتُّ الْكَرْبُ
لَقَالَ صَادِقُهُمْ أَنْ قَدْ بُلِيَ جَسَدِي لَكِنَّ نَارَ الْهَوَى فِي الْقَلْبِ تَلْتَهِبُ
خَفَّتْ مَدَامِعُ عَيْنِ الْجِسْمِ حِينَ بَكَى وَإِنَّ بِاللَّمْعِ عَيْنَ الرُّوحِ تَنْسَكِبُ

وقال :

أَحِنُّ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ وَحَاجَتِي خِيَامٌ بِنَجْدٍ دُونَهَا الطَّرْفُ يَقْصُرُ
وَمَا نَظَرِي مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ بِنَافِعِي أَجَلٌ وَلَكِنِّي عَلَى ذَاكَ أَنْظُرُ
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ عِبْرَةٌ ثُمَّ نَظْرَةٌ لَعَيْنِكَ يَجْرِي مَآوَاهَا يَتَحَدَّرُ
مَتَى يَسْتَرِيحُ الْقَلْبُ إِذَا مُجَاوِرُ حَزِينٌ وَإِذَا نَارِ حُ يَتَذَكَّرُ
يَقُولُونَ كَمْ تَجْرِي مَدَامِعُ عَيْنِهِ لَهَا الدَّهْرُ دَمْعٌ وَكَيْفُ يَتَحَدَّرُ
وَلَيْسَ الَّذِي يَجْرِي مِنَ الْعَيْنِ مَاءُهَا وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَذُوبُ وَتَفْطُرُ

وقال :

وَشَغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الْحَدِيثِ سِدْوَى مَا كَانَ مِنْكَ وَحُبُّكُمْ شُغْلِي
وَأَدِيمُ نَحْوِ مُحَدَّثِي لِيَرَى أَنْ قَدْ فَهِمْتُ وَعِنْدَكُمْ عَقْلِي

وقال : واجتمع قوم على جرير بن الخطفي ، فقال لهم جرير : ما بيت نصفه كأنه أعرابي على قعود ، ونصفه كأنه جالينوس بحكمته ؟ قالوا : لاندري ، قال : قد أجلتكم ، قالوا : لو أجلتنا حولين لم ندر ، ولكن عرفنا ، فأنشأ يقول :

أَلَا أَيُّهَا النَّوَّامُ وَيَحْكُمُ هُبُّوْا

كأنه أعرابي على قعود له ، ثم أدركه اللين ووضوح الحب فقال :
 أُسَائِلُكُمْ هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ الْحُبُّ
 فَقَالُوا نَعَمْ حَتَّى يَرْضَى عِظَامَهُ وَيَسْتُرْكَهَ حَيْرَانٍ لَيْسَ لَهُ لُبُّ
 فَيَابَعُلَ لَيْلَى كَيْفَ يُجْمَعُ شَمْلُنَا لَدَى وَفِيَا بَيْنَنَا شَبَّتِ الْحَرْبُ
 لَمَّا مِثْلُ ذَنْبِي الْيَوْمَ إِنْ كُنْتُ مُذْنِبًا
 وَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ كَانَ لَيْسَ لَهَا ذَنْبُ

وعن رجل من بني أسد قال :

خرجت في عام أشهب ، أمسكت السماء فيه مطرها ، والأرض
 نبتها ، فرحلت ناقتي وركبت الصعب والذلول ترفعني أرض ، وتحفضني
 أخرى ، فلما صرت في ماء لبني حنيفة ، رفعت لي روضة معشبة ، كثيرة
 الأنوار والزهر ، فدعيتني نفسي إلى الإلمام بها ، فنزلت في أرجاء تلك
 الأزاهير الموثقة ، والأنوار الپديعة المورقة ، وأنخت ناقتي إلى قنوان
 شجرة صغيرة ، وجلست هنيئة ، فبينما أنا كذلك إذ سقط رجل من

جراد ، فافتشت جنباتها ، وأخذت طولها وعرضها ، فظلمت متعجب
 مما أرى ، ثم رميت نظري في نواحيها ، فإذا أنا بشخص أقبل وما على
 جسده غير شعر منسدل على صدره ، وزغبات على عكته ، فراعني
 منظره ، واستطار قلبي خوفاً ووجلاً ، وخشيت أن أكون على شرف
 الهلاك ، وما شككت أنه شيطان مارد ، فلما دنا مني أنشأ يقول :

حُبُّ إِلَيْنَا بِكَ يَا جَرَادُ

أَرْضٌ وَإِنْ جَاعَتْ بِكَ الْأَكْبَادُ وَضَاقَتْ الْأَصْدَارُ وَالْأُورَادُ
 وَلَمْ يَكُنْ قَبْلُ لَنَا عَتَادُ وَلَا لِأَبْنَاءِ السَّيْلِ زَادُ

قلت إنسي أنت أم جني ؟ فأنشأ يقول :

إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنِّي هَائِمٌ وَصِيبُ

أَمَا تَرَى الْجِسْمَ قَدْ أَوْدَى بِهِ الْعَطَبُ

لِلَّهِ قَلْبِي مَاذَا قَدْ أَتَيْحَ لَهُ حَرُّ الصَّبَابَةِ وَالْأَوْجَاعُ وَالْوَصَبُ

ضَاقَتْ عَلَيَّ بِلَادُ اللَّهِ مَا رَحِبَتْ يَا لِلرَّجَالِ فَيْلٌ فِي الْأَرْضِ مُطَرَّبُ

الْبَيْنُ يَوْمَ لَمْنِي وَالشَّوْقُ يَجْرَحُنِي وَالِدَارُ نَارِحَةٌ وَالشَّمْلُ مُنْشَبُ

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى لَيْلَى وَقَدْ حُجِبَتْ

عَهْدِي بِهَا زَمَنًا مَا دُونَهَا حُجْبُ

ثم خرَّ مغشياً عليه ، فبادرت إلى الماء ، ونضجت على وجهه ، فأفاق

بعد حين ، ثم تنفس الصعداء فأنشأ يقول :

بِلَادِي لَوْ فَهَمْتُ بَسَطْتُ عُذْرِي إِذَا مَا الْقَلْبُ عَاوَدَهُ نُرُوعُ
بِهَا الْحَمْسُ — مِنْ الْمُبَاحِ لِمَنْ بَغَاةُ وَجَزَعُ الْغَرِيبِ بِهِ مُرِيعُ
إِلَى أَهْلِي الْكِرَامِ تَشَاقُّ نَفْسِي فَهَلْ يَوْمًا إِلَى وَطَنِي أُرِيعُ

وقيل : كانت العرب تحفر الركيا والبرك وتملؤها ماء ، ثم تسقى إبلها
وغنمها ، فإذا انتجعت إلى غير تلك البقعة عفتها الرياح الصيفية ، فطمست
آثارها القساطل ، فكان المجنون يمرّ بتلك البقاع فلا يرى غير وتد
مشجوج ، ونوى منهدم ، وطوى مثاوم ، فيستعبر أسفاً وحرناً ويقول :

أَلَا يَارُ كَيَّاتِ الرَّسِيسِ عَلَى الْبِلَا سَقِيتَنِّ هَلْ فِي ظِلِّكَ كُنَّ شُجُونُ
أَضْرَبُكَ كُنَّ الْعَامَ نَوْءٌ سَحَابَةٌ وَمَحَلٌّ فَهَذَا تَجْرِي لَكُنَّ عُيُونُ
أَجْنُتَنِّ بَعْدَ الْحَيِّ فَأَنْصَحْتَ اللَّوْىَ وَكُنْتَنِّ عَهْدِي مَا بَكُنَّ أَجُونُ

قال : ثم قعد عند جبل يقال له الوشل بناحية تهامة ، كأعظم ما يكون
من الجبال ، وأنشأ يقول :

إِقْرَأْ عَلَى الْوَشْلِ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ كُلُّ الْمَشَارِبِ مُذْ هُجِرَتْ ذَمِيمُ
جَبَلٌ يَزِيدُ عَلَى الْجِبَالِ إِذَا بَدَا بَيْنَ الذَّرَائِعِ وَالْحُثُومِ مُقِيمُ (١)
تَسْرِي الصَّبَا فَتَبِيتُ فِي أَلْوَاذِهِ وَيَبِيتُ فِيهِ مَعَ الشَّمَالِ نَسِيمُ (٢)
سُقِيًّا لِظِلِّكَ بِالْعَشِيِّ وَبِالضُّحَى وَلِبَرْدِ مَائِكَ وَالْمِيَاهُ حَمِيمُ

(١) الذرائع : جمع ذريعة وهي الوسيلة يقال استدرع به : استتر وجعله ذريعة له .
الحثوم : جمع حثمة ، وزن تمر : وهي الراية ، وقيل الطريق العالية .
(٢) ألواز : جمع لوزة : وهي ثمر شجر معروف .

لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ مَتْنَعِ مَائِكَ لَمْ يَذُقْ

مَا فِي فَلَاتِكَ مَا حَبِيتُ لِسِيمِ

وقيل : خرج رجل يريد سفراً ، فبينما هو يمر بين سباسب وآكام ،

إذ رأى رجلاً نحيل الجسم كأضوا ما يكون من الرجال وهو على شفير بئر ،

قال فدنوت منه فإذا هو يقول :

عَفَا اللَّهُ عَنْ لَيْلَى وَإِنْ سَفَكَتُ دَهِي

فَأَنْتِ وَإِنْ لَمْ تُجْزِنِي غَيْرُ عَائِبِ

عَلَيْهَا وَلَا مُبْدٍ لِّلَيْلَى شِكَايَةٍ

وَقَدْ يَشْتَكِي الْمُسْكَى إِلَى كُلِّ صَاحِبِ

يقولون تب عن ذكر لَيْلَى وَحُبِّهَا وَمَا خَلَدِي عَنْ حُبِّ لَيْلَى بِتَائِبِ

وقال أيضاً :

فَإِنَّ جَذُوعَ الْقَوْمِ لَيْسَ بِخَالِدِ

وَكَا الشَّمْسِ يَسْبِي دَأْهَا كُلَّ عَابِدِ

وَدَسَعُ حَبِثٍ فِي الْهَوَى غَيْرُ جَامِدِ

وَدَمْعُ شَجِيٍّ الصَّبِّ أَعْدَلُ شَاهِدِ

عَلَى الْإِنْسَاتِ النَّاعِمَاتِ الْخَرَائِدِ

وَهَيْهَاتَ إِنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ بِعَائِدِ

فَحُبُّكَ يَنْمَى زَائِدًا غَيْرَ بَائِدِ

فَيَا قَلْبُ مَتَّ حُزْنًا وَلَا تَكُ بَجَادِعًا

هَبْوَيْتُ فَتَاةً كَالْغَزَالَةِ وَجْهَهَا

وَلِي كَبِدٌ حَرٌّ وَقَلْبٌ مُعَذِّبٌ

وَأَيُّهُ وَجَدِ الصَّبِّ تَهْطَالُ دَمْعُهُ

عَلَى مَا انْطَوَى مِنْ وَجْدِهِ فِي ضَمِيرِهِ

فَيَا لَيْتَ أَنَّ الدَّهْرَ بَجَادُ بَرَجَّةٍ

إِلَيْكَ فَعَزَّ النَّفْسَ وَاسْتَشْعَرَ الْأَسَى

وَقَدْ شَسَعَتْ لَيْلِي وَشَطَّ مَزَارُهَا
فِيَا أَسَفًا حَتَّامَ قَلْبِي مُعَذِّبُ
وَعَبَّرَهَا عَنْ عَهْدِهَا قَوْلُ حَاسِدٍ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو طُولَ هَذِي الشَّدَائِدِ
ثم رجعت فتركته ومضيت عنه .

وعن رجل من بني عامر قال :

لقيت المجنون عند قفوله عن البيت الحرام ، فقلت له : ويحك !
استشعر الصبر ، واستبق مودة الحبيب بكتمان الحب ، واعلم أنك
لا تصل إلى الحبيب إلا بالستر ونفيك الشنعة ، فإن التهلكة تقطع مواد
الغبطة ، وليس للمهتوك ألفة ، والمستور طويل مدة الغبطة ، فكان من
جوابه أن قال :

إِنِّ الْغَوَايِي قَتَلْتُ عُشَّاقَهَا
فِي صُدُغَيْنِ عَقَّارِبُ يَلْسَعُنَا
يَا لَيْتَ مَنْ جَهَلَ الصَّبَابَةَ ذَاقَهَا
كَالْحَلَاكِزْرَانَةِ لَا تَمَلُّ عِنَاقَهَا
يَدُمِي الْحَرِيرُ جُلُودَهُنَّ وَإِنَّمَا
زَانَتْ رَوَادِفَهَا دِقَاقُ خُصُورِهَا
إِنِّ الَّتِي طَرَّقَ الرَّجَالَ خِيَالَهَا
مِنْ عَاجَةٍ حَكَّتِ الشَّدَى حِقَاقَهَا
يُكْسِنُ مِنْ حُلِّ الْحَرِيرِ رِقَاقَهَا
إِنِّي أَحِبُّ مِنَ الْخُصُورِ دِقَاقَهَا
مَا كُنْتُ زَائِرَهَا وَلَا طَرَّاقَهَا

وقال أيضاً :

وَقَالُوا : لَوْ تَشَاءُ سَأَلْتُ عَنْهَا
فَقُلْتُ هُمْ فَاِنِّي لَا أَسَاءُ

وَكَيْفَ وَحُبُّهَا عَلِقَ بِقَلْبِي كَمَا عَلِقَتْ بِأُرْشِيَّةٍ دِلَاةٍ (١)
 لَهَا حُبٌّ تَنْشَأُ فِي فُؤَادِي فَلَيْسَ لَهُ وَإِنْ زَجَرَ انْتِهَاهُ
 وَعَازِلَةٌ تَقَطُّعُ نِيَّ مَلَامًا وَفِي زَجَرِ الْعَوَازِلِ لِي بَلَاءُ
 قال : فأقسمت عليه أن ينشدني أحسن ما قاله في وصف الحاجر
 والأطراف ، والبشر والجلد ، فقال :

لِيَالِي أَصْبُو بِالْعَشِيِّ وَبِالضُّحَى إِلَى خُرْدٍ لَيْسَتْ بِسُودٍ وَلَا عَصَلٍ
 مُنَعَّمَةٍ الْأَطْرَافِ هَيِّفَ يُطَوِّنُهَا

كَوَاعِبُ تَمْشِي مِشْيَةَ الْخَيْلِ فِي الْوَحْلِ
 وَأَعْيُنُهَا مِنْ أَعْيُنِ الْبَقَرِ النَّجْلِ
 وَأَثْلَاسُهَا الشُّفْلَى بَرَادَى سَاحِلٍ
 وَأَثْلَاسُهَا الْعُلْيَا كَانَ فُرُوعَهَا
 وَتَرْمِي فَتَحْطَاذُ الْقُلُوبِ عِيُونَهَا
 زَرَعْنَ الْهُوَى فِي الْقَلْبِ ثُمَّ سَقَيْنَهُ
 رَعَائِبُ مَا صَدَنَ الْقُلُوبَ وَإِنَّمَا
 فَفِيمَ دِمَاءِ الْعَاشِقِينَ مُطْلَةٌ
 وَيَقْتُلْنَ أَبْنَاءَ الصَّبَا بِعَنْوَةٍ
 كَوَاعِبُ تَمْشِي مِشْيَةَ الْخَيْلِ فِي الْوَحْلِ
 وَأَعْيُنُهَا مِنْ أَعْيُنِ الْبَقَرِ النَّجْلِ
 وَأَثْلَاسُهَا الْوُسْطَى كَثِيبٌ مِنَ الرَّمْلِ
 عَنَاقِيدُ تُغَدِّي بِالذَّهَانِ وَبِالْعَسَلِ
 وَأَطْرَافُهَا مَا تُحْسِنُ الرَّحَى بِالنَّبْلِ
 صَبَابَاتُ مَاءِ الشُّوقِ بِالْأَعْيُنِ النَّجْلِ
 هِيَ النَّبْلُ رِيشتُ بِالْفُتُورِ وَالْكَحْلِ
 بِأَقْوَدٍ عِنْدَ الْحَسَانِ وَلَا عَقْلٍ
 أَمَانِي الْهُوَى يَا رَبِّ مَنْ حَكَمَ عَدْلُ !!

(١) الأرشية : جمع رشاء ، وهو الحبل . والدلاء : جمع دلو ، وهو ما يستقى به
 ويجمع أيضاً على دلي .

وقال أبو الحسن العلوّي : سألت الوالي عن أحسن شيء قاله المجنون
في العفة فأنشدني :

أَلَا يَاشِفَاءَ النَّفْسِ لَوْ يُسْعِفُ النَّوَى وَنَجْوَى فُؤَادِي لَا تُبَاحُ سَرَائِرُهُ
أُثْبِي فَتًى حَقَّقَتْ قَوْلَ عَدُوِّهِ عَلَيْهِ وَقَّاتٌ فِي الصَّدِيقِ مَعَاذِرُهُ
أُحِبُّكَ يَا لَيْلَى عَلَى غَيْرِ رِيْبَةٍ وَمَا خَيْرُ حُبٍّ لَا تَعْفُ ضَمَائِرُهُ
وَأُنْشِدُ :

يَجِيْشُونَ فِي لَيْلَى عَلَى وَلَمْ أَنْزَلْ مَعَ الْعَدْلِ مِنْ لَيْلَى حَرَامًا وَلَا حِلًّا
سِوَى أَنْ حُبًّا لَوْ يَشَاءُ أَقْلَهَا وَلَوْ تَبَتَّغَى ظِلًّا لَكَانَ لَهَا ظِلًّا
أَلَا حَبْدًا أَطْلَالَ لَيْلَى عَلَى الْبِلَا وَمَا بَدَلْتُ لِي مِنْ نَوَالٍ وَإِنْ قَلَّا
فَمَا يَتِمَادَى الْعَهْدُ إِلَّا تَجَدَّدَتْ مَوَدَّتُهَا عِنْدِي وَإِنْ زَعَمْتَ أَنْ لَا
وقال بعضهم : بينما المجنون ذات يوم جالس إذ مر به غراب ،
فأنشأ يقول :

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ إِنْ كُنْتَ هَابِطًا بِلَادًا لِلَّيْلِ فَالْتَمِسْ أَنْ تَكَلِّمًا
وَبَلِّغْ تَحِيَّاتِي إِلَيْهَا وَصَبِّوْتِي وَكُنْ بَعْدَهَا عَنْ سَائِرِ النَّاسِ أَعْجَمًا
وقال : بينما المجنون ذات يوم في خطرات جنونه وحيرته لا يدرى أين
يتوجه ، إذ لاح البرق له فوقف ساعة ثم قال :

أَلَا لَا أَحِبُّ السَّيْرَ إِلَّا مُصْعَدًا وَلَا الْبَرْقَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ يَمَانِيَا
عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ وَإِنْ كُنْتُ مِنْ لَيْلَى عَلَى الْيَأْسِ طَاوِيَا

إِذَا مَا تَمَنَّى النَّاسُ رَوْحًا وَرَاحَةً
أَرَى سَقَمًا فِي الْجِسْمِ أَصْبَحَ ثَاوِيًا
وَنَادَى مُنَادِي الْحُبِّ أَتَيْنَ أُسِيرُنَا
حَمَلْتُ فُؤَادِي إِنْ تَعَلَّقَ حُبُّهَا
وَقَالَ أَيْضًا :

لَقَدْ طَرَقْتَنِي أُمٌّ خِشْفٍ وَإِنِّهَا
أَقَامَ فَرِيقٌ مِنْ أَنْاسٍ بُوْدُهُمْ
بِحَاجَةٍ مَحْزُونٍ كَثِيبٍ فُؤَادُهُ
تَحِيلُنْ أَنْ هَبَّتْ لَهْنٌ عَشِيَّةً
فِيَا كَبِدًا أَخْشَى عَلَيْهَا وَإِنِّهَا
كَانَ فَضُولَ الرَّقْمِ حِينَ جَعَلَتْهَا
وَفِيهِنَّ مَنْ نَجَلِ النَّسَاءِ بِحُلَّةٍ
هَبَانٌ فَأَمَّا الدَّعْصُ مِنْ أُخْرِيَاتِهَا
إِذَا صَرَخَ الْقَوْمُ الْكَرَى لَطَرُوقُ^(١)
بِذَاتِ الشَّرَى عِنْدِي وَبَاتَ فَرِيقُ
رَهِينٍ بِيضَاتِ الْحِجَالِ صَدِيقُ
جَنُوبٍ وَإِنْ لَاحَتْ لَهْنٌ بَرُوقُ
تَخَافَةَ هَضْبَاتِ اللَّوَى نَخْفُوقُ
غَدِيًّا عَلَى أَدَمِ الْجَمَالِ عُدُوقُ^(٢)
تَكَادُ عَلَى غُرِّ السَّحَابِ تَرُوقُ^(٣)
فَوَعْتُ وَأَمَّا خَصْرُهَا فَدَقِيقُ^(٤)

(١) الخشف : ولد الغزال يطلق على الذكر والأنثى ، والجمع خشوف مثل حمل وحمول .
(٢) الأدم بفتحين وبضمين : جمع أديم وهو الجلد المدبوغ . العذوق : جمع عذوق ،
وهي النخلة بحملها .

(٣) غر السحاب من إضافة الصفة للموصوف أي السحاب الغر ، أي الأبيض .
وتروق : تصفرو .

(٤) الدعص بالكسر وبهاء : قطعة من الرمل مستديرة أو الكتيب منه المجتمع
أو الصغير . الوعث : رمل رقيق تغيب فيه الأقدام .

وقال أيضاً :

أَقُولُ لِقَمَقَامِ بْنِ زَيْدٍ أَلَا تَرَى
فَإِنَّ تَبَكُّكَ لِلْبَرْقِ الَّذِي هَبَّجَ الْهَوَى

أَعْنِكَ وَإِنْ تَصُـ————بِرْ فَلَسْتُ بِصَابِرٍ
سَـ————قَى اللَّهُ حَيًّا بَيْنَ ضَارَّةٍ وَالْحَمَى

حَمَى الرَّشَفِ صَوْبَ الْمَذْجَنَاتِ الْمَوَاطِرِ
أَمِينُ وَادِي اللَّهِ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ وَوَقَاهُمْ صُرُوفَ الْمَقَادِرِ

وقيل : إنه مرّ ذات يوم بدوحة مديدة الظل ، بأسقة الأغصان ،
وريقة الأفنان ، في يوم غليل شديد التميظ ، فاستند إلى ساقها ، واستظل
بظلها ، وقد خامرته الهموم ، وعلاه الجنون ، فرقدت عيناه ، فما انتبه
إلا بصفير طائر على الشجرة فانتبه فزعا مرعوبا ، فأنشأ يقول :

لَقَدْ هَتَفْتُ فِي جُنْحِ لَيْلٍ حَمَامَةٌ
فَقُلْتُ اعْتِذَارًا عِنْدَ ذَاكَ وَإِنِّي
أَزْعُمُ أَنِّي عَاشِقٌ ذُو صَبَابَةٍ
كَذَبْتُ وَبَيَّتَ اللَّهُ لَوْ كُنْتُ عَاشِقًا

وَقَالَ أَيْضًا :

هَوَى صَاحِبِي رِيحَ الشَّمَالِ إِذَا جَرَتْ
وَأَهْوَى لِنَفْسِي أَنْ تَهْبَّ جَنُوبُ

فَوَيْلِي عَلَى الْعُذَالِ مَا يَنْزُ كُونِي
يَقُولُونَ لَوْ عَزَّيْتَ قَلْبَكَ لَأَرْعَوَى
بَغْمِي أَمَا فِي السَّعَادِينَ لَبِيبُ
فَقُلْتُ وَهَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ
دَعَانِي الْهَوَى وَالشَّوْقُ لَمَّا تَرَانَتْ

هَتُوفُ الضُّحَى بَيْنَ الْغُصُونِ طُرُوبُ
تُجَاوِبُ وَرَقًا قَدْ أَصْحَنَ لِحْوَتَهَا
فَقُلْتُ حَمَامَ الْأَيْكِ مَالِكَ بَاكِيًا
تَذَكَّرُنِي لَيْلَى عَلَى بُعْدِ دَارِهَا
وَقَدْ رَابَنِي أَنَّ الصَّبَا لَا تُجِيبُنِي
سَبَى الْقَلْبِ إِلَّا أَنَّ فِيهِ تَجَلُّدًا
فَكَلَّمُ غَزَالَ الْمَاتِحِينَ فَإِنَّهُ
قَلَّوْ أَنَّ مَا بِي بِالْحَصَا فَلَقَى الْحَصَا
وَلَوْ أَنَّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كَلَّمَا
فَدَوِي عَلَى عَهْدٍ فَلَسْتُ بِزَائِلِ
وَقَالَ أَيْضًا:

أَمُوتُ إِذَا شِطَّتْ وَأُحْيَا إِذَا دَنَتْ
فَمِنْ أَجْلِ لَيْلَى تَوَلَّعَ الْعَيْنُ بِالْبُكََا
وَتَبَعْتُ أَحْزَانِي الصَّبَا وَنَسِيْمَهَا
كَأَنَّ الْحَشَا مِنْ تَحْتِهِ عُلِقَتْ بِهِ
وَتَأْوِي إِلَى نَفْسٍ كَثِيرٍ مُهْمُومَهَا
يَدُ ذَاتِ أَظْفَارٍ قَادَمَتْ كُلُّومَهَا

قيل : إن الجنون حب يوما أصحاب إبل واستروح بهم فزلوا منزلاً
لم يجدوا لابلهم فيه ماء قد أجهدهم الكلال فباتوا ليلتهم ، فلما نور
الصباح قدح أحدهم ناراً فكأما التهب أطفأتها الريح والمطر ، فلما طال
ذلك عليهم أنشأ الجنون يقول :

يَا مُوقِدَ النَّارِ يُدْ كَيْهَا وَيُحْمِدُهَا
قُمْ فَاصْطَلِ النَّارَ مِنْ قَلْبِي مُضَرَّمَةً
وَيَا أَخَا الذُّودِ قَدْ طَالَ الظَّمَاءُ بِهَا
رُدَّ الْمَطِيَّ عَلَى عَيْنِي وَمَحْجَرِهَا
يَا مُزْمِعَ الْبَيْنِ إِنْ جَدَّ الرَّحِيلُ فَلَا
وقال :

أَقُولُ لِأَصْحَابِي وَقَدْ طَلَبُوا الصَّبَا

تَعَالَوْا أَصْطَلُوا إِنْ خِفْتُمْ الْقَرَّ مِنْ صَدْرِي
إِذَا ذُكِرْتَ لَيْلَى أَحْرُ مِنْ الْجَمْرِ
فَقُلْتُ تَعَالَوْا فَاسْتَقُوا الْمَاءَ مِنْ نَهْرِي
سَيَغْنِيكُمْ دَمْعُ الْجَفُونِ عَنِ الْحَفْرِ
فَقَالُوا لِمَاكَ اللَّهُ قُلْتُ اسْمَعُوا عَذْرِي
إِذَا بَرَزْتُ يُغْنِي عَنِ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ
وَيَجْرَحُهَا دُونَ الْعِيَانِ لَهَا فِكْرِي

فَإِنَّ كَلِيبَ النَّارِ بَيْنَ جَوَانِحِي
فَقَالُوا نُرِيدُ الْمَاءَ نَسْتَقِي وَنَسْتَقِي
فَقَالُوا وَأَيْنَ النَّهْرُ قُلْتُ مَدَامَعِي
فَقَالُوا وَلِمَ هَذَا فَقُلْتُ مِنَ الْهَوَى
أَلَمْ تَعْرِفُوا وَجْهًا لِلَيْلَى شِعَاعُهُ
يُمِرُّ بَوَهِمِي خَاطِرُهُ فَيَوْدُهَا

مُنْعَمَةٌ لَوْ قَابَلَ الْبَدْرُ وَجْهَهَا
 هِلَالِيَّةٌ الْأَعْلَى مُطْلَخَةُ الذَّرَا
 مُبْتَلَةٌ هَيْفَاءَ مَهْضُومَةٍ الْحَشَا
 مُدْمَلَجَةٌ السَّاقَيْنِ بَضٌّ بَضِيضَةٌ
 فَقَالُوا أَتَجْنُونَ فَقُلْتُ مُوسُوسُ
 فَلَا مَلَكَ الْمَوْتِ الْمُرِيحُ يُرِيحُنِي
 وَصَاحَتْ بِوَشَاكِ الْبَيْنِ مِنْهَا حَمَامَةٌ
 عَلَى دَوْحَةٍ يَسْتَنُّ تَحْتَ أَصُولِهَا
 مُطَوَّقَةٌ طَوْقًا تَرَى فِي خُطَامِهَا
 أَرَنْتَ بِأَعْلَى الصَّوْتِ مِنْهَا فَهَيَّجَتْ
 فَقُلْتُ لَهَا عُودِي فَلَمَّا تَرَنْمَتْ
 كَانَ فُؤَادِي حِينَ جَدَّ مَسِيرُهَا
 فَوَدَّعْتُهَا وَالنَّارُ تَدْحُ فِي الْحَشَا
 وَرُحْتُ كَأَنِّي يَوْمَ رَاحَتْ جِجَاهُكُمْ
 أَيْتُ صَرِيحُ الْحُبِّ دَامَ مِنَ الْهَوَى

لَكَانَ لَهُ فَضْلٌ مُبِينٌ عَلَى الْبَدْرِ
 مَرَجَرَجَةٌ الشَّفْلَى مَهْفُوفَةٌ الْخَضِرُ (١)
 مُورَدَةٌ الْخَدَيْنِ وَاضِحَةٌ الشَّعْرِ
 مُفَلَّجَةٌ الْأَنْيَابِ مَحْقُولَةٌ الْخَمْرِ
 أَطُوفُ بِظَهْرِ الْبَيْدِ قَفْرًا إِلَى قَفْرِ
 وَلَا أَنَا ذُو عَيْشٍ وَلَا أَنَا ذُو صَبْرِ
 تَغَنَّتْ بِلِيلٍ فِي ذُرَى نَاعِمٍ نَضْرِ
 نَوَاقِعُ مَا مَدَّهُ رَضْفُ الصَّخْرِ
 أَصُولُ سَوَادٍ مُطْمَئِنٍّ عَلَى النَّخْرِ
 فُؤَادًا مُعْنَى بِالْمَلِيحَةِ لَوْ تَدْرِي
 تَبَادَرَتِ الْعَيْنَانِ سَحًّا عَلَى الصَّدْرِ
 جَنَاحُ غُرَابٍ رَامَ نَهْضًا إِلَى الْوَاكِزِ
 وَتَوَدَّعْتُهَا عِنْدِي أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ
 سَقَيْتُ دَمَ الْحَيَاتِ حِينَ أَنْقَضَى عَمْرِي
 وَأَصْبَحُ مَنزُوعَ الْفُؤَادِ مِنَ الصَّدْرِ

(١) من الطلح ، وهو الذي يبقى في أسفل الحوض والغدير ، والمعنى أنها سوداء الشعر .

رَمَتْنِي يَدُ الْأَيَّامِ عَنْ قَوْسِ غِرَّةٍ

بِسَهْمَيْنِ فِي أَعْشَارِ قَلْبِي وَفِي سَحَرِي

بِسَهْمَيْنِ مَسْمُومَيْنِ مِنْ رَأْسِ شَاهِقٍ فَعَوِدَتْ مُحْمَرَّ التَّرَائِبِ وَالنَّحْرِ

مُنَايَ ! دَعَيْتَنِي فِي الْهَوَى مُتَعَلِّقًا فَقَدَمْتُ إِلَّا أَنَّنِي لَمْ يُزَرْ قَبْرِي

فَلَوْ كُنْتُ مَاءً كُنْتُ مِنْ مَاءِ مُرْنَةٍ

وَلَوْ كُنْتُ نَوْمًا كُنْتُ مِنْ غَفْوَةِ الْفَجْرِ

وَلَوْ كُنْتُ لَيْلًا كُنْتُ لَيْلَ تَوَاصُلِ

وَلَوْ كُنْتُ نَجْمًا كُنْتُ بَدْرَ الدُّجَى يَسْرِي

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا غَايَةَ الْمُنَى وَقَانِدَتِي حَتَّى الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ

قال :

ونظر ذات يوم إلى طير يحلق في جو السماء ، فأتبعه بصره ، وأنشأ يقول :

أَلَا أَيُّهَا الطَّيْرُ الْمُحَلِّقُ غَادِيَا تَحْمَلُ سَلَامِي لَا تَذَرْنِي مُنَادِيَا

تَحْمَلُ هَذَاكَ اللَّهُ مِنِّي رِسَالَةً إِلَى بَلَدٍ إِنْ كُنْتُ بِالْأَرْضِ هَادِيَا

إِلَى قَفْرَةٍ مِنْ نَحْوِ لَيْلَى مُخِلَّةٍ بِهَا الْقَلْبُ مِنِّي مُوْتَوٍّ وَفَوَادِيَا

أَلَا لَيْتَ يَوْمًا حَلَّ بِي مِنْ فِرَاقِكُمْ تَزَوَّدْتُ ذَاكَ الْيَوْمَ آخِرَ زَادِيَا

قال موسى بن جعفر :

خرج المجنون لما أصابه ما أصابه حتى أتى الشام ، فسأل عن أرض

بنى عامر ، فقيل وأين أنت من أرض بنى عامر ؟ عليك بنجم كذا ،

فرجع إلى أرض بنى عامر ، ووقف عند جبل يقال له ثوبان فقال :

وَأَجْهَشْتُ لِلثَّوْبَانِ حِينَ رَأَيْتُهُ وَهَآءَ لِّلرَّحْمَنِ حِينَ رَأَيْتَنِى
وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَمَّا رَأَيْتُهُ وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ وَدَعَانِى
فَقُلْتُ لَهُ أَأَيْنَ الَّذِينَ عَاهَدْتُهُمْ حَوَالَيْكَ فِى خَضْبٍ وَطِيبِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَاسْتَوْدَعُونِى بِلَادَهُمْ وَمَنْ ذَا الَّذِى يَبْقَى مَعَ الْخَدَنَانِ
وَإِنِّى لَأُبْكِى الْيَوْمَ مِنْ حَذَرِى غَدَا فِرَاقَكَ وَالْحَيَّانِ مُؤْتَلِفَانِ
سِجَالًا وَهَتَّانًا وَوَبَلًا وَدِيمَةً وَسَحًّا وَتَسْجَامًا إِلَى هَمَلَانِ

قال الوالى :

ذكر أن أباه الملوح وإخوته ، ساروا إلى الصحراء ليأخذوه ويردوه
إلى الحى وأهل بيته ، وذلك بعد ما نحل جسمه واسود وجهه ، وجف
جلده على عظامه ، فلما وردوا عليه لقوه قاعداً على تلٍّ من رمل
وهو يخط بأصبعه ، فلما دنوا منه نفر ، فناداه أبوه: يا قيس ! أنا أبوك الملوح
وهذا أخوك ، فطب نفساً وأبشر ، فقد وعدنى أبوها أن يزوجهما ، ويردك
من نفارك ، وينزل عند حاكم ورضاك ، فأقبل إليهم ، وأنس بهم ،
فقال له أبوه: يا قيس ! أما تتق الله وتراقبه ، كم تطيع هواك وتعصينى ! فقد
كنت أرحى ولدى ، أفضلك عليهم وأوثرك ، فأخلفت ظنى ، ولم تحقق
أملى ، فليت شعرى ما أراها ممن يوصف بالجمال والحسن ، وقد بلغنى أنها

فوهاء قصيرة جاحظة العينين شهلة سمجة ، فعدُّ عن ذكرها ، ولك في قومك
من هو خير لك منها ، فلما سمع ثلثه فيها أنشأ يقول :

يَقُولُ لِي الْوَاشُونَ لَيْلَى قَصِيرَةٌ فَلَيْتَ ذِرَاعًا عَرَضُ لَيْلَى وَطُولُهَا
وَإِنَّ بَعَيْنَيْهَا لَعَمْرُكَ شَهْلَةٌ فَقُلْتُ كِرَامُ الطَّيْرِ شَهْلٌ عُيُونُهَا
وَجَاحِظَةٌ فَوْهَاءٌ لَا بَأْسَ إِنَّهَا مِنِّي كَيْدِي بَلْ كُلُّ نَفْسٍ وَسْوَطُهَا
فَدَقَّ صِلَابُ الصَّخْرِ رَأْسَكَ سَرْمَدًا فَأَنَّى إِلَى حِينِ الْمَاتِ خَلِيلُهَا

فلما سمعوا هذه الأبيات تركوه وانصرفوا قانطين ، فبينما هو ذات يوم
نائم إذ مرَّ به رجل فقال :

أَلَا إِنَّ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةٌ وَأَنْتَ خَلِيُّ الْبَالِ تَلْهُو وَتَرْقُدُ
فَلَوْ كُنْتَ يَا مَجْنُونُ تُضْنِي مِنَ الْهَوَى

لَيْتَ كَمَا بَاتَ السَّيِّمُ الْمُسَهَّدُ ١١

نخر المجنون مغشياً عليه لما سمع ذلك ، فلما أفاق أنشأ يقول :

يَقُولُونَ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةٌ فَمَا لَكَ لَا تُضْنِي وَأَنْتَ صَدِيقُ
سَقَى اللَّهُ مَرْضَى بِالْعِرَاقِ فَإِنِّي عَلَى كُلِّ مَرْضَى بِالْعِرَاقِ شَفِيقُ
فَإِنْ تَكُ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةٌ فَإِنِّي فِي بَحْرِ الْحُتُوفِ غَرِيقُ
أَهْيِمُ بِأَقْطَارِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا وَمَالِي إِلَى لَيْلَى الْغَدَاةِ طَرِيقُ
كَأَنَّ فُؤَادِي فِيهِ مُورٍ بِقَادِحِ وَفِيهِ لَهَيْبٌ سَاطِعٌ وَبُرُوقُ
إِذَا ذَكَرْتُهَا النَّفْسُ مَاتَتْ صَبَابَةً لَهَا زَفْرَةٌ قَتَالَةٌ وَشَيْقُ

سَقَتْنِي شَمْسٌ يُجِلُّ الْبَدْرَ نُورُهَا وَيَكْسِفُ ضَوْءَ الْبَرْقِ وَهُوَ بَرُوقُ
عَرَابِيَّةُ الْفَرَغَيْنِ بَدْرِيَّةُ السَّنَا وَمَنْظَرُهَا بَادِي الْجَمَالِ أَنْيَقُ
وَقَدْ صِرْتُ مَجْنُونًا مِنَ الْحُبِّ هَائِمًا كَأَنِّي عَانٍ فِي الْقِيُودِ وَثِيقُ
أَظَلُّ ذَرِيحَ الْعَقْلِ مَا أَطْعَمُ الْكَرَى وَلِلْقَلْبِ مِسْنَى أَنَّهُ وَخْفُوقُ
بَرَى جُهَاً جِسْمِي وَقَلْبِي وَمُهْجَتِي فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَعْظَمُ وَعُرُوقُ
فَلَا تَعْدِلُونِي إِنْ هَلَكْتُ تَرَحَّمُوا عَلَى فَقْدِ الرُّوحِ لَيْسَ يَعُوقُ
وَحُطُّوا عَلَى قَبْرِي إِذَا مِتُّ وَاسْكُبُوا

قَتِيلُ لِحَاطِ مَاتَ وَهُوَ عَشِيقُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا آلَى مِنْ أَلْهَوَى بِلَيْلِي فِي قَلْبِي جَوَى وَحَرِيقُ
وَقَالَ أَيْضًا :

أَقُولُ لِظَنِّي مَرَّ بِي وَهُوَ رَاتِعُ أَأَنْتَ أَخُو لَيْلَى فَقَالَ يُقَالُ
أَيَّا شِبْهَ لَيْلَى إِنْ لَيْلَى مَرِيضَةٌ وَأَنْتَ صَحِيحٌ إِنْ ذَا لِمَحَالُ
وَقَالَ أَيْضًا :

يَقُولُونَ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةٌ فَأَقْبَبْتُ مِنْ مِصْرٍ إِلَيْهَا أَعُودُهَا
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي إِذَا أَنَا جِئْتُهَا أَلْبُرْشَهَا مِنْ دَائِهَا أَمْ أَزِيدُهَا

(وروى) أن رهطاً من بني أسد خرجوا إلى بلاد الشام في بعض
تجارتهم فعثروا بالجنون ، فقالوا له : يا قيس ! ما منع أبا ليلى أن يتلافى في أمرك
ويتداركه ، إلا أن قد صار مشهوراً في الأمصار ذكر ما دار بينكما ، من

الرفث والفسوق ، فهلا كفت نفسك عن المعاصي ، وزجرتها عن القذع
والأمور الفظيعة ، حتى يدوم لك صفاء المودة ، وغضارة النعمة ، خاليا عما
أنت بصدده ، فلما سمع مقالتهم بكى بكاء متوجعا ، وأنشأ يقول :

أَلَا أَيُّهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ وَشَوْا بِنَا عَلَى غَيْرِ مَا تَقْوَى إِلَهِ وَلَا بَرٍّ
أَلَا يَنْهَكُمُ عَنْ تَقَاكُمُ فَتَنَّتَهُوَا

أَمْ أَنْتُمْ أَنْاسٌ قَدْ جُبِلْتُمْ عَلَى الْكُفْرِ
تَعَالَوْا نَقِفْ صَفَيْنِ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَنَدْعُو إِلَهَ النَّاسِ فِي وَضَحِ الْفَجْرِ
عَلَى مَنْ يَقُولُ الزُّورَ أَوْ يَطْلُبُ الْخَنَا

وَمَنْ يَقْذِفُ الْخُودَ الْحَصَانَ وَلَا يَدْرِي
حَلَفْتُ بِمَنْ صَلَّتْ قُرَيْشٌ وَجَمَرَتْ لَهُ بِمِئْنَى يَوْمِ الْإِفَاضَةِ وَالنَّحْرِ
وَمَا حَلَقُوا مِنْ رَأْسٍ كُلِّ مُلَجِّي صَبِيحَةَ عَشْرِ قَدْ مَضَيْنَ مِنَ الشَّهْرِ
لَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنِّي حَصَانًا بَرِيئَةً مُطَهَّرَةً لَيْلَى مِنَ الْفُحْشِ وَالنُّكْرِ
مِنَ الْخَفَرَاتِ الْبَيْضِ لَمْ تَدْرِ مَا الْخَنَا

وَلَمْ تُلَفْ يَوْمًا بَعْدَ تَجَمُّعِهَا تَسْرِي
وَلَا بَرَزَتْ فِي يَوْمِ أَضْحَى وَلَا فِطْرِ وَلَا تَسْمَعُوا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ مِثْلَهَا
بَرْهَرَةً كَالشَّمْسِ فِي يَوْمِ صَحْوِهَا بَرَهْرَةً كَالشَّمْسِ فِي يَوْمِ صَحْوِهَا
هِيَ الْبَدْرُ حُسْنًا وَالنِّسَاءُ كَوَاكِبُ الْبَدْرِ
يَقُولُونَ مَجْنُونٌ يَهْسِمُ بِذِكْرِهَا وَوَاللَّهِ مَا بِي مِنْ جُنُونٍ وَلَا سِحْرِ

إِذَا مَا قَرَضْتُ الشَّعْرَ فِي غَيْرِ ذِكْرِهَا

أَبِي وَأَيُّكُمْ أَنْ يَطَاوَعَنِي شِعْرِي

فَلَا نَعِمْتُ بَعْدِي وَلَا عِشْتُ بَعْدَهَا

عَلَيْهَا سَلَامُ اللَّهِ مِنْ ذِي صَبَابَةٍ

لِيَالِي أُعْطِيتُ الْبَطَالَةَ مِقْوَدِي

مَضَى لِي زَمَانٌ لَوْ أَخِيرَ بَيْنَهُ

لَقُلْتُ ذَرُونِي سَاعَةً وَكَلَامَهَا

ثُمَّ جَعَلَ يَدُورُ هَائِمًا ، قَدْ اشْتَدَّ وَسْوَاسُهُ وَجَنُونُهُ ، إِذْ مَرَّ بِعُقَابٍ

سَاقِطٍ عَلَى وَكْرِهِ ، فَدَنَا مِنْهُ وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَلَا يَا عُقَابَ الْوَاكِرِ وَكَرِ ضَرِيَّةً

سَقَيْتِ الْغَوَادِي مِنْ عُقَابٍ عَلَى وَكْرِ

أَبِينِي لَنَا لَا زَالَ رِيْشُكَ نَاعِمًا

أَبِينِي لَنَا قَدْ طَالَ مَا قَدْ تَرَكَتْنَا

وَقَفْتُ عَلَى مَرَّانٍ أَنْشُدُ نَاقَتِي

وَمَا هَلَكْتُ لِي مِنْ قُلُوصٍ وَلَا بَكْرٍ

وَمَا أَنْشُدُ الْبِعْرَانَ إِلَّا صَبَابَةً

مُفَلَّجَةً الْأَنْيَابِ لَوْ أَنَّ رِيْقَهَا

يُدَاوِي بِهِ الْمَوْتَى لَقَامُوا مِنَ الْقَبْرِ

إِذَا ذُكِرَتْ لَيْلَى أُسْرُ بِذِكْرِهَا

كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ مِنْ بَلَالِ الْقَطْرِ

فَقَالَ جَمِيعُ النَّاسِ لَمَّا نَشَدْتُهَا
تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بَلَيْلَى عَنِ الْهَوَى
أَلَا زَعَمْتَ لَيْلَى بِأَنْ لَا أَحِبُّهَا
بَلَى وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ
بَلَى وَالَّذِي نَادَى مِنَ الطُّورِ عَبْدُهُ
لَقَدْ فَضَّلْتُ لَيْلَى عَلَى النَّاسِ مِثْلَ مَا
بَلَى وَفَرِيقٌ قَالَ وَاللَّهِ مَا نَذَرِي
كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ
بَلَى وَلِيَالِي الْعَشْرِ وَالشَّفْعِ وَالْوَسْرِ
بِقُدْرَتِهِ تَجْرِي السَّفَائِنُ فِي الْبَحْرِ
وَعَظَّمْ أَيَّامَ الذَّبِيحَةِ وَالنَّحْرِ
عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فَضَّلْتُ لَيْلَى الْقَدْرِ

وقال :

فَوَاللَّهِ مَا أَبْكَى عَلَى يَوْمِ مَيَّتِي
فَصَبْرًا لِأَمْرِ اللَّهِ إِنْ حَانَ يَوْمُنَا
وَلَكِنِّي مِنْ وَشَكٍ بَيْنَكَ أَجْزَعُ
فَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمَّةٍ اللَّهُ مَدْفَعُ

قال علي بن صالح :

حججت مع أبي عيسى بن الرشيد ، فبينما نسرى ليلا ، إذ نحن بأعرابي
يترنم بأبيات ، ماسمعت والله أحسن منها ، ونعمات ما كدت أسمع مثلها وهي :
أَلَا هَلْ إِلَى شَمِّ الْخَزَامِيِّ (١) وَنَظْرَةِ
يَدَاوِي بِهَا قَبْلَ الْمَمَاتِ سَبِيلُ (٢)
فَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ الْحُجَيَّلَاءِ شَرِبَةً
يَدَاوِي بِهَا قَبْلَ الْمَمَاتِ عَلِيلُ (٣)

(١) الخزامى كخبارى : خيري البر ، زهره أطيب الأزهار نفحة ، والتبخر به يذهب كل رائحة منتنة ، واحتماله في فرجة مجبل وشربه مصلح للسكبد والطحال والدماغ البارد
(٢) الفرقة : اسم موضع .
(٣) الحجيلة : الماء الذي لا تصيبه الشمس ويستعمل نقصورا .

فَيَا أَثَلَاتِ (١) الْقَاعِ قَدْ مَلَّ سُجُوتِي مَسِيرِي قَهْلُ فِي ظِلِّكَ مَقِيلُ
 وَيَا أَثَلَاتِ الْقَاعِ ظَاهِرُ مَا بَدَا بِجِسْمِي عَلَى مَا فِي الْفُؤَادِ دَلِيلُ
 وَيَا أَثَلَاتِ الْقَاعِ مِنْ بَيْنِ تَوْضِحِ حَنِينِي إِلَى أَفْيَائِكَ طَوِيلُ
 وَيَا أَثَلَاتِ الْقَاعِ قَلْبِي مُوَكَّلُ بِكَ وَجَدَوِي خَيْرُكَ قَلِيلُ
 أَرُومُ انْحِدَارًا نَحْوَهَا فَيَرُدُّنِي وَيَمْنَعُنِي دِينَ عَلَى ثَقِيلُ
 أَحَدْتُ عَنْكَ النَّفْسَ إِذْ لَسْتُ رَاجِعًا

إِلَيْكَ فَحَزْنِي فِي الْفُؤَادِ دَخِيلُ

وقال :

أَحْجَاجَ بَيْتِ اللَّهِ فِي أَيِّ هَوْدَجٍ وَفِي أَيِّ خِدْرِ مِنْ خُدُورِكُمْ قَلْبِي
 أَبْقَى أَسِيرَ الْحُبِّ فِي أَرْضِ غُرَبَةٍ
 وَحَادِيكُمْ يَحْدُو بِقَلْبِي فِي الرَّكْبِ

وقال :

وَمُغْتَرِبٍ بِالْمَرْجِ يَبْكِي بِشَجْوِهِ وَقَدْ غَابَ عَنْهُ الْمَسْعِدُونَ عَلَى الْحُبِّ
 إِذَا مَا أَتَاهُ الرَّكْبُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِ تَنَفَّسَ يَسْتَشْفِي بِرَأْحَةِ الرَّكْبِ
 فقال أبو عيسى : على بالرجل ، ففترقت الخيل في طلبه يَمْنَةً وَيَسْرَةً ،
 فما كان إلا هنيهة حتى أتى برجل ضئيل الجسم ، ناحل البدن ، عريان ،

(١) الأثلاث : جمع أثلة واحدة الأثل ، وهو الشجر . القاع : أرض سهلة مطمئنة قد
 انقرجت عنها الجبال والآكام .

فقال له : من أنت؟ لأملك الهبل ! فوالله ما تهنه أن قال أسرع من مخرج نفسه وارتداد طرفه :

أَنَا الْوَامِقُ الْمَشْغُوفُ وَاللَّهُ نَاصِرِي
أَنَا النَّاحِلُ الْمَهْمُومُ وَالْقَائِمُ الَّذِي
أَظَلُّ بِحُزْنٍ دَائِمٍ وَتَحَسُّرٍ
فَحَتَّامٍ يَا لَيْلَى فُوَادِي مُعَذِّبٍ
لَعَمْرِي مَا لَاقَى جَمِيلٌ بَنُ مَعْمَرٍ
وَلَمْ يَلْقَ قَابُوسٌ وَقَيْسٌ وَعُرْوَةٌ
صَبَا يُوسُفٌ وَاسْتَشْعَرَ الْحُبَّ قَلْبُهُ
وَبَشَرٌ وَهِنْدٌ ثُمَّ سَعْدٌ وَوَامِقٌ
وَهَارُوتُ لَاقَى مِنْ جَوَى الْحُبِّ سَطْوَةٌ

وَمَارُوتُ فَاجَاهُ الْبَلَاءِ الْمَصْمُومِ
أَبُو الْقَاسِمِ الزَّاكِي النَّبِيُّ الْمَكْرَمُ
وَدَمَعِي عَلَى خَدَّيْ يَفِيضُ وَيَسْجُمُ
مُنْعَمَةٌ اللَّحْظَيْنِ تُبْرَى وَتُسْقِمُ
فَلَا قَلْبُهُ يَسْأَلُ وَلَا هِيَ تَرْحَمُ
لَهَا بَيْنَ جَنَبَيْهِ سَعِيرٌ مُضْرِمٌ
وَإِنْ لَمْ يَفْهَمْ يَوْمًا بِهِ مُشْكَلٌ

وَلَمْ يَخْلُ مِنْهُ الْمَصْطَفَى سَيِّدُ الْوَرَى
أَبَيْتُ صَرِيحَ الْحُبِّ بِأَكِّ مِنَ الْهَوَى
وَلَوْلَا طُرُوقُ اللَّيْلِ أَوْدَتْ بِنَفْسِهِ
إِذَا هِيَ زَادَتْ النَّوَى زَادَ فِي الْهَوَى
أَعَارَتْهُ أَنْفَاسَ الصَّبَا بِكَ صَبْوَةٌ
أَلَا إِنْ دَمَعَ الصَّبُّ عَمَّا يُجْنَهُ

لساني عبي في الهوى وهو ناطقٌ ودَمعي فصيحٌ في الهوى وهو أعجمٌ
وكيف يطيق الصَّبُّ كتابَ سرِّه

وهل يكتم الوجدَ أمروً وهو مغرمٌ
هذيري من طيفٍ أتى بعد موهينٍ
تَنفَسَ رَوْضَ جَدَاهُ ماءَ مِرْنَةٍ
برامة حِزْوِي عَرَفُهُ يَتَقَدَّمُ
وأطرافُهُ تَبْكِي الندى ثم تَبْسِمُ

قال له أبو عيسى : أما نحن إلى أكناف الحمى ؟ ويرتاح قلبك إلى
أقطار نجد وبلاد ليلي ، فزفر زفرة ، ثم رن بعدها وقال :

تَعَزَّ بِصَبْرٍ لَا وَجَدَكَ لَا تَرَى بِشَامِ الْحَمَى إِحْدَى اللَّيَالِي الْغَوَاثِرِ
كَأَنَّ فُؤَادِي مِنْ تَذَكُّرِهِ الْحَمَى وَأَهْلُ الْحَمَى يَهْفُو بِهِ رِيَشُ طَائِرِ

قال علي : فوالله لقد أبكنا جميعاً ، ثم أمر له أبو عيسى بأثواب شريفة
ودراهم كثيرة ، فقلنا : أيد الله الأمير إنه لجنون ، ما يلبس ثوباً إلا قدّه
ورماه ، فعد عنه إلى ما سواه ، وسله أن ينشدك بعض أشعاره ، فقلنا
له : هل لك أن تروى لمولانا الأمير شيئاً من شعرك ؟ فطفق يبكي ويقول :

وَإِنِّي وَإِنْ لَمْ أَتِ لَيْلِي وَأَهْلَهَا لَبَاكِ بُكَاءُ طِفْلِ عَلَيْهِ التَّمَائِمُ
بُكَاءُ لَيْسَ بِالسَّزْرِ الْقَلِيلِ وَدَائِمًا

كَمَا الْهَجْرُ مِنْ لَيْلَى عَلَى الدَّهْرِ دَائِمٌ
هَجَرْتُكَ أَيَّامًا بِذِي الْغَمْرِ إِنِّي
فَلَمَّا مَضَتْ أَيَّامُ ذِي الْغَمْرِ وَارْتَمَى
عَلَى هَجْرٍ أَيَّامٍ بِذِي الْغَمْرِ نَادِمٌ
بِي الْهَجْرُ لَا مَتْنِي عَلَيْكَ اللَّوَائِمُ

وَإِنِّي وَذَاكَ الْمَجْرَى مَا تَعْلَمِيْنَهُ كَعَارِزَةٍ عَنْ طِفْلَيْهَا وَهِيَ رَأْتُهُمْ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي أَهْمٌ بِذِكْرِهَا عَلَى حِينٍ لَا يَبْقَى عَلَى الْوَصْلِ هَاتَمٌ
أَظَلُّ أَمْنِي النَّفْسَ إِيَّاكَ خَالِيَا كَمَا يَتَمَنَّى بَارِدَ الْمَاءِ صَاتَمٌ

وقال :

أَلَا أَيُّهَا الْقَلْبُ اللَّجُوجُ الْمَعْدَلُ

أَفَقُّ عَنْ طِلَابِ الْبَيْضِ إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ أَفَقُّ قَدْ أَفَاقَ الْوَامِقُونَ وَإِنَّمَا
تَمَادِيكَ فِي لَيْلِي ضَلَالٌ مُضَلُّ وَأَنْتَ بِلَيْلِي مُسْتَهَامٌ مُوَكَّلُ
إِلَيْكَ وَلَكِنْ أَنْتَ بِاللَّوْمِ تَعْجَلُ فَقَالَ فَوَّادِي مَا اجْتَرَزْتُ مَلَامَةً
فَوَّادِكَ مَا يَعْنِيَا بِهِ الْمُتَحَمِّلُ فَعَيْنَكَ لَهَا إِنْ عَيْنَكَ حَمَلَتْ
فَقُلْتُ نَعَمْ حَاشَاكَ إِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ لَحَا اللَّهُ مَنْ بَاعَ الْخَلِيلَ بِغَيْرِهِ
أَبْرُ وَأَوْفَى بِالْعُهُودِ وَأَوْصَلُ وَقُلْتُ لَهَا يَا لَيْلُ إِنِّي
وَلَا ذَنْبَ لِي يَا لَيْلُ فَالْصَّفْحُ أَجْمَلُ هِيَ أَنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا عَلِمْتُهُ
وَإِنْ شِئْتُ قَتَلًا إِنْ حُكِمَكَ أَعْدَلُ فَإِنْ شِئْتُ هَاتِي نَارَ عَيْنِي خُصُومَةً
وَلَيْلِي إِذَا مَا جَنَنِي اللَّيْلُ أَطْوَلُ نَهَارِي نَهَارٌ طَالَ حَتَّى مَلَأْتُهُ
لِبُهُمْ رَعَتْ وَالذَّنْبُ غَرَّتَانُ مَرْمِلُ وَكُنْتُ كَذِئْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً
فَقَالَتْ مَتَى ذَا قَوْلَ ذَا عَامٍ أَوَّلُ أَلَسْتُ الَّتِي مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ شَتَمْتَنِي
فَهَاكَ فَكُلْنِي لَا يَهْنِيكَ مَا أَكَلُ فَقَالَتْ وَلِدْتُ الْعَامَ بَلْ رُمْتُ كَذِبَةً

وَكُنْتُ كَذَّابًا الْعَصَافِيرُ دَائِبًا
فَلَا تَنْظُرِي لِيَلِي إِلَى الْعَيْنِ وَانْظُرِي
وقال :

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعَيْسُ تَهْوَى
تَمْتَعُ مِنْ شَمْسٍ عِرَارٍ نَجْدٍ
أَلَا يَا حَبَّ—ذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ
وَأَهْلُكَ إِذْ يَحِلُّ الْحَيُّ نَجْدًا
شُهُورٌ يَنْتَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا
فَأَمَّا لَيْلَاهُنَّ فَخَيْرٌ لَيْلٍ

وقال :

مِنْ أَجْلِ سَارِفِي دُجَى اللَّيْلِ لَامِعُ
عَلَامٌ تَخَافُ الْبَيْنَ وَالْبَيْنُ نَافِعُ
إِذَا لَمْ تَزَلْ رَمْنٌ تُحِبُّ مَرَوَّعًا

وقال :

سَأْبِكِي عَلَى مَا فَاتَ مِنِّي صَبَابَةً
وَأَمْنَعُ عَيْنِي أَنْ تَلَدَّ بِغَيْرِكُمْ
وَأَخِيرُ زَمَانٍ كُنْتُ أَرْجُو دُنُوهُ
فَأَصْبَحْتُ مَرَحُومًا وَكُنْتُ مُحْسَدًا

وَعَيْنَاهُ مِنْ وَجْدٍ عَائِيَتْ شُهْلُ
إِلَى الْكَفِّ مَاذَا بِالْعَصَافِيرِ تَفْعَلُ

بِنَا بَيْنَ الْمُنِيفَةِ فَالضَّمَارِ
فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عِرَارِ
وَرَيَّا رَوْضَةً غِبَّ الْقِطَارِ
وَأَنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارِ
بِأَنْصَافٍ كُنَّ وَلَا سَرَارِ
وَأَطْوَلُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

جَفَوْتَ حَذَارَ الْبَيْنِ ابْنِ الْمَضَاجِعِ
إِذَا كَانَ قُرْبُ الدَّارِ لَيْسَ بِنَافِعِ
بِغَدْرِ فَإِنَّ الْبَيْنَ لَيْسَ بِرَائِعِ

وَأَنْدُبُ أَيَّامِ السُّرُورِ الدَّوَاهِبِ
وَإِنِّي وَإِنْ جَانَبْتُ غَيْرُ مُجَانِبِ
رَمَتْنِي عَيُونُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
فَصَبْرًا عَلَى مَكْرُوهِهَا وَالْعَوَاقِبِ

وَلَمْ أَرَهَا إِلَّا ثَلَاثًا عَلَى مِثْنِي
تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ

وقال أيضاً :

أَحِنُّ إِذَا رَأَيْتُ جِبَالَ قَوْمِي
سَقَى الْغَيْثُ الْمَجِيدُ بِلَادَ قَوْمِي
عَلَى نَجْدٍ وَسَاكِنِ أَرْضِ نَجْدٍ

وقال أيضاً :

بِنَفْسِي مَنْ لَا بُدَّ لِي أَنْ أَهَاجِرَهُ
وَمَنْ قَدْ رَمَاهُ النَّاسُ بِي فَأَتَقَاهُمْ
فَمِنْ أَجْلِهَا ضَاقَتْ عَلَيَّ بَرَحِيهَا
وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ مَنْ لَا يُحِبُّنِي
أَتَهْجُرُ بَيْتًا لِلْحَبِيبِ تَعَلَّقَتْ

وَكَيْفَ خَلَاصِي مِنْ جَوَى الْحُبِّ بَعْدَمَا

يُسْرُ بِهِ بَطْنُ الْفُؤَادِ وَظَاهِرُهُ
وَقَدْ مَاتَ قَبْلِي أَوَّلُ الْحُبِّ فَأَنْقَضَى
فَإِنْ مِتُّ أَضْحَى الْحُبُّ قَدَمَاتِ آخِرُهُ
وَقَدْ كَانَ قَلْبِي فِي حِجَابٍ يُسْكِنُهُ
فَحُبُّكَ مِنْ دُونِ الْحِجَابِ يُبَاشِرُهُ
أَصْدُ حَيَاءٍ أَنْ يَتَسَجَّ بِي الْهَوَى
وَفِيكَ الْمَنَى لَوْلَا عَدُوٌّ أَحَازِرُهُ

وقال أيضاً :

يَا مَنْ شَغِلْتُ بِهَجْرِهِ وَوَصَالِهِ
وَاللَّهِ مَا التَفَتَ الْجُنُونُ بِنَظَرَةٍ

وقال أيضاً :

وَمَفْرُوشَةُ الْخَدَّيْنِ وَرَدًّا مُضَرَّجًا
شَكَوْتُ إِلَيْهَا طَوْلَ لَيْلِي بِعَبْرَةٍ
فَقُلْتُ لَهَا مَنِّي عَلَى بَقْبَسَةٍ
بُلَيْتَ بِرِدْفٍ لَسْتُ أَطْعَمُ حِمْلَهُ

وقال أيضاً :

فَوَادِي بَيْنَ أَضْلَاعِي غَرِيبُ
أَحَاطَ بِهِ الْبَلَاءُ فَكُلَّ يَوْمٍ
لَقَدْ جَلَبَ الْبَلَاءُ عَلَى قَلْبِي
فَإِنْ تَكُنِ الْقُلُوبُ كَمِثْلِ قَلْبِي

وقال أيضاً :

وَمُسْتَوْحِشٍ لَمْ يُمَسِّ فِي دَارِ غُرَبَةٍ

وقال أيضاً :

بَيْضَاءَ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ كَأَنَّهَا
مَوْسُومَةٌ بِالْحُسْنِ ذَاتِ حَوَاسِدِ

هَمُّ الْفَى وَنَسِيتُ يَوْمَ مَعَادِي
إِلَّا وَذِكْرُكَ خَاطِرُهُ بِفَوَادِي

إِذَا جَشَّتْهُ الْعَيْنُ عَادَ بِنَفْسِي
فَأَبَدْتُ لَنَا بِالْغَنَجِ دُرًّا مُفْلَجًا
أَدَاوِي بِهَا قَلْبِي فَقَالَتْ تَعْنَجًا
يُجَادِبُ أَعْضَائِي إِذَا مَا تَرَجَّرَجَا

يُنَادِي مَنْ يُحِبُّ فَلَا يُجِيبُ
تُقَارِعُهُ الصَّبَابَةُ وَالنَّحِيبُ
فَقَلْبِي مُذْ عَلِمْتُ لَهُ جَاوِبُ
فَلَا كَانَتْ إِذَا تِلْكَ الْقُلُوبُ

وَلَكِنَّهُ يَمِّنُ يَوْدُ غَرِيبُ

قَرْمٌ تَوَسَّطَ جُنْحَ لَيْلٍ أَسْوَدِ
إِنَّ الْحَسَانَ مَظْنَّةٌ لِلْحُسَدِ

وَتَرَى مَدَامِيعَهَا تُرَقِّقُ مُقْسَلَةً
خَوْذُهَا إِذَا كَثُرَ الْكَلَامُ تَعَوَّذَتْ
وَقَالَ أَيْضًا :

أَحِنُّ إِلَى نَجْدٍ وَإِنِّي لَا أَيْسُ
وَإِنْ يَكُ لَا لَيْلَى وَلَا نَجْدَ فَأَعْتَرِفُ
وَقَالَ أَيْضًا :

أَلَا إِنَّمَا أَفْنِي دُمُوعِي وَشَفَنِي
وَمَالِي لَا يَسْتَنْفِدُ الشَّوْقُ عِبْرَتِي
إِذَا لَمْ أَجِدْ عُذْرًا لِنَفْسِي وَلِمَتَهَا
خُرُوجِي وَتَرَكِي مَنْ أَحَبُّ وَرَائِيَا
إِذَا كُنْتُ مِنْ دَارِ الْأَحِبَّةِ نَائِيَا
حَمَلْتُ عَلَى الْأَقْدَارِ مَا كَانَ تَجَارِيَا

قال : فلما فرغ من إنشاد هذه الأشعار ظهر له غزالان في أصل جبل فتبعهما حتى وقف بحذائهما وجعل ينظر إليهما ويبكي ويقول :

أَيَا جَبَلِ الثَّلَجِ الَّذِي فِي ظِلَالِهِ
غَزَا الْآنَ شَبَابًا فِي نَعِيمٍ وَغِبْطَةٍ
أَرْغَمُهُمَا خِتَلًا فَلَمْ أَشْتَطِعْهُمَا
خَلِيلِي أُمًّا أُمَّ عَمْرٍو فَمِنْهُمَا
فَمَا صَادَيَاتُ حِمْنٍ يَوْمًا وَلَيْسَلَةٍ
يَرَيْنَ حُبَابَ الْمَاءِ وَالْمَوْتَ دُونَهُ
بَأْ كَثَرِ مَنِي حَسْرَةٍ وَصَبَابَةٍ
غَزَا الْآنَ مَكْحُولَانِ مُؤْتَلِفَانِ
وَرَغْدَةَ عَيْشٍ نَاعِمٍ عَطِرَانِ
فَقَرًّا وَشَيْكَا بَعْدَ مَا قَتَلَانِي
وَأَمَّا عَنِ الْآخِرَى فَلَا تَسْلَانِي
مَلَى الْمَاءِ دُونَ الْوَرْدِ هُنَّ حَوَانِ
وَهُنَّ الْأَصْوَاتِ السَّقَاءِ رَوَانِ
إِلَيْهَا وَلَكِنَّ الْفِرَاقَ عَرَانِي

خَلِيلِي إِنِّي مَيِّتٌ أَوْ مُكَلَّمٌ
أَقِيلُ حَاجَتِي وَحَدِي فَيَارُبَّ حَاجَةٍ
وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ مِنِّي تَحِيَّةً
وَمَنْ قَادَنِي لِلْهُوتِ حَتَّى إِذَا صَفَتْ
وَقَالَ أَيْضًا :

أَحْبَبُّكَ حُبًّا لَوْ تُحِبُّنِي مِثْلَهُ
وَصِرْتُ بِقَلْبٍ عَاشَ أَمَّا نَهَارُهُ
أَصَابَكَ مِنْ وَجْدٍ عَلَى جُنُونٍ
فَحَزَنٌ وَأَمَّا لَيْلُهُ فَأَنِينٌ
ثم نهض من الواديين ، وصر على وجهه يدور في الصحراء ، فمر برجلين
قد قنصا ظبيًا ور بطاه ، فدنا منهما المجنون وتأمله ساعة ، ثم قال لهما : اختارا
شاة من غنمي مكانه وخلياه . فأبيا عليه ، فلم يزل بهما حتى أعطاهما أربع
شياه من غنمه مكانه ثم خليه فأنشأ يقول :

شَرِيتُ بِشَاتِي شِبْهَ لَيْلِي وَلَوْ أَبَوَا
فَلَوْ كُنْتُمَا حُرَيْنِ مَا بَعْتُمَا مَعًا
لَأَعْطَيْتُ مِنْ مَالِي طَرِيفِي وَتَلَدِي
شَبِيهَاً لَلَيْلِي بَيْعَةَ الْمُتَزَايِدِ
وَأَعْتَقْتُمَا هَا رَغْبَةً فِي ثَوَابِهَا
وَلَمْ تَرْغَبَا فِي نَاقِصٍ غَيْرِ زَائِدِ
وَقَالَ أَيْضًا :

يَا صَاحِبَيَّ اللَّذَيْنِ الْيَوْمَ قَدْ أَخَذَا
إِنِّي أَرَى الْيَوْمَ فِي أُعْطَافٍ شَاتِكُمَا
فِي الْحَبْلِ شَبِيهَاً لَلَيْلِي ثُمَّ غَلَّهَا
مُشَابَهَا أَشْبَهَتْ لَيْلِي فَحُفَّ لَهَا
وَأَرْشَدَا هَا إِلَى خَضِرَاءٍ مُعْشَبَةٍ
يَوْمًا وَإِنْ طَلَبْتُ إِلْفًا فَدَلَّهَا

وَأُورِدَ أَهْلَهَا غَدِيرًا لَا عَدِمْتُكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مُّزْنٍ قَرِيبٍ عِنْدَ مَرْعَاهَا
ثم إنه سرّ بيني عمه ، وكانوا معادين له يسخرون منه ، ويهزءون به ،
ويقولون : كيف ليلى ؟ وكيف حبك لها ؟ فإذا ذكرت ليلى له رجع
إليه عقله ، فيجلس إليهم يتحدثهم ، وينشدهم ما قال فيها من الشعر ، فيقولون :
والله ما به من جنون وإنه لعاقل ، فإذا سمع منهم هذه المقالة خنقته العبرة
وأنشأ يقول :

أَيَا وَيْحَ مَنْ أُمْسَى يُحَلِّسُ عَقْلَهُ فَاصْبَحَ مَذْهُوبًا بِهِ كُلُّ مَذْهَبٍ
خَلِيعًا مِنَ الْخُلَاةِ إِلَّا مَعَذَّبًا يُضَاحِكُنِي مَنْ كَانَ يَهْوَى تَجَنُّبِي
إِذَا ذُكِرْتُ لَيْلَى عَقَلْتُ وَرَاجَعْتُ رَوَائِعُ قَلْبِي مِنْ هَوَى مُتَشَعِّبٍ
وَقَالُوا : صَحِيحٌ مَا بِهِ طَيْفُ جِنَّةٍ وَلَا أَلَهْمُ إِلَّا بِافْتِرَاءِ التَّكْذِبِ
وَلِي سَقَطَاتٌ حِينَ أُغْفِلُ ذِكْرَهَا يَغُوصُ عَلَيْهَا مَنْ أَرَادَ تَعْقِي
وَشَاهِدُ وَجْهِ دِمْعُ عَيْنِي وَحُبُّهَا

بَرَى اللَّحْمَ عَنْ أَهْنَاءِ عَظْمِي وَمَنْكَبِي
تَجَنَّبْتُ لَيْلَى أَنْ يَلِجَ بِيَ الْهَوَى وَهَيْهَاتَ كَانَ الْحُبُّ قَبْلَ التَّجَنُّبِ
فَمَا مُغْزَلٌ أَدْمَاءَ بَاتَ غَزَاهَا بِأَسْفَلِ نُهْيِ ذِي عِرَارٍ وَخَلْبِ
بِأَحْسَنَ مِنْ لَيْلَى وَلَا أُمَّ فَرَقَدٍ غَضِيضَةُ طَرْفٍ رَعِيهَا وَسَطَ رَبِّ رَبِّ
نَظَرْتُ خِلَالَ الرَّكْبِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى

بَعَيْنِي قَطَامِي نَمَا فَوْقَ عُرْقُبِ

إِلَى ظُنِّ تُحْدَى كَأَنَّ زُهَاءَهَا
وَلَمْ أَرَّ لَيْلَى غَيْرَ مَوْقِفِ سَاعَةٍ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةِ كَنَاطِرِ
أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتُ يَأْمَ مَالِكِ
حَلَفْتُ بِمَنْ أَرَسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ
وَمَا يَسْلُكُ الْمَوْمَاةُ (٣) مِنْ كُلِّ نَقْصَةٍ

طَلِيحٌ كَجَفْنِ السَّيْفِ تُهْدَى لِرَكَبِ
خَوَارِجٍ مِنْ نُعْمَانٍ أَوْ مِنْ سُفُوحِهِ

إِلَى الْبَيْتِ أَوْ يَطْلُعْنَ مِنْ نَجْدِ كَبْكَبِ
وَأِنْ جَاءَ يَبْغِي نَيْلَنَا لَمْ يُؤَنَّ
أَرَى الْمَوْتَ مِنْهَا فِي مَجِيئِي وَمَذْهَبِي
وَأَنَا مَسْتَقَى مَا نَفْتَرِقُ نَتَشَعَّبِ
مِنْ اللَّيْنِ هُدَابُ الدَّمَقْسِ (٤) الْمَهْدَبِ
أَشَارَتْ بِمَوْشُومٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ
قَالَ غَوَانَةُ :

خرج من رجل إلى وادي القرى مع جماعة يمتارون فمرُّوا على طريقهم
وعثروا بالجنون ، فقالوا : يا قيس نراك محبًّا ليلَى ؟ فقال نعم ، قالوا : أفلا

-
- (١) الأثل شجر واحدة أثلة ، وجهه أثلات وأثل .
(٢) الأثلب - بالفتح ويكسر - التراب والحجارة أو فتاتها .
(٣) الموماة : الصحراء . والطيح : البعير المهزول .
(٤) الدمقس : كهزبر الأبريسم أو الفز أو الديباج أو الكتان

أتى جبلى نعمان ، قال : فأية ريح تهب من أرضها ؟ قالوا : الصبا ، فأقام
بها وأنشأ يقول :

يَا جَبَلِي نُعْمَانُ بِاللَّهِ خَلِيًّا
أَجِدُ بَرْدَهَا أَوْ يُشْفِي مِنِّي حَرَارَةً
فَإِنَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّمْتُ
لِيَالِي أَهْلُونَا بِنُعْمَانٍ جِيرَةً
أَلَا إِنِّ أَدَوَاتِي بِلَيْلِي قَدِيمَةٌ
تَذَكَّرْتُ وَصَلَ النَّاعِجِيَّاتِ بِالصُّحَى
وَأَنْتِ الَّتِي هَيَّجْتَ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ
وَقَدْ قَذَيْتِ عَيْنِي بِلَيْلِي وَأَتَّبَعْتُ
خَلِيلِي قَوْمًا بِالْعَصَابَةِ فَأَعْصَبَا
وقال :

وَعَهْدِي بِلَيْلِي حَبِيدًا ذَاكَ مِنْ عَهْدِ
فَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجَدًّا عَلَى وَجْدِي
عَلَى فَنَنِ غَضِّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّندِ
جَلِيدًا وَأَبْدَيْتُ الَّذِي لَمْ أَكُنْ أَبْدِي
هُامِيَّةً وَأُشْتَقَاقَ قَلْبِي إِلَى نَجْدِ
وَإِنْ بَخِلْتُ بِالْوَعْدِ مَتُّ عَلَى الْوَعْدِ
خَلِيلِي مُرَّابِي عَلَى الْأَبْرِقِ الْفَرْدِ
أَلَا يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَى هَجَّتِ مِنْ نَجْدِ
إِذَا هَتَفَتْ وَرَقَاءَ فِي رَوْتَقِ الصُّحَى
بَسَكَيْتُ كَمَا يَبْكِي الْوَلِيدُ وَلَمْ أَزَلْ
وَأَصْبَحْتُ قَدْ قَضَيْتُ كُلَّ لُبَانَةٍ
إِذَا وَعَدْتُ زَادَ الْهَوَى لَا نَتِظَارَهَا

وَإِنْ قَرُبْتُ دَارًا بَكَيْتُ وَإِنْ نَأَيْتُ
أَحْنُ إِلَى نَجْدٍ فَيَا لَيْتَ إِنِّي
أَلَا حَبَّذَا نَجْدٌ وَطِيبُ تُرَابِهِ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْمُحِبَّ إِذَا دَنَا
بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشَفَّ مَا بِنَا
عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ لَيْسَ بِنَافِعٍ

ثم مضى على وجهه واشتد به الشوق فكان لا يلبس قميصاً إلا خرقة ،
ولا درعاً إلا مزقة ، وترك محادثة الناس ، وصار لا يفقه شيئاً ، قد اختلس
لُبُّهُ واختطفته الأحزان والكرب ، وخامرته الجنون ، وعلاه الأمر الفظيع ،
فإذا ذكرت له ليلي آب إليه عقله ، وأفاق من غشيته ، وتجلت عنه غمرته
فإذا قطع ذكرها عاد إلى وسواسه وسوء حاله ، يأنس بالوحش ويستريح
إليه ، ويتنسم الريح من تلقاء نجد .
(قال الوالي) :

ثم وَلِيَ عَلَيْهِمُ نُوْفَلُ بْنُ مَسَاحِقٍ ، قال : فبينما نُوْفَلُ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ إِذْ
مَرَّ بِرَجُلٍ عَرِيَانٍ كَأَصْبَحَ مَا يَكُونُ مِنَ الرِّجَالِ ، وَهُوَ قَاعِدٌ يَلْعَبُ بِالتُّرَابِ قَدْ
جَمَعَ الْعِظَامَ حَوْلَهُ ، فَدَنَا مِنْهُ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أُعْجِبُ مِنْ هَذَا الْفَتَى :
يَا غِلَامَ اطْرَحْ عَلَيْهِ ثَوْبًا ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ : أَتَدْرِي مِنْ هَذَا ؟ قَالَ لَا ،
قَالُوا : هَذَا مَجْنُونُ بَنِي عَامِرٍ ، قَالَ نُوْفَلُ : وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَحِبُّهُ وَأَحْبَبُ لِقَاءَهُ
فَكَيْفَ لِي بِالذَّنْوِ مِنْهُ ؟ قِيلَ لَهُ إِذَا ذَكَرْتَ لَهُ لَيْلِي فَإِنَّهُ يَأْنِسُ ، فَدَنَا مِنْهُ
نُوْفَلُ ، وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَشْغُوفُ ! إِنْ لَيْلِي تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ . فَلَمَّا ذَكَرَهَا رَجَعَ

إليه عقله، وأقبل إليه يحدثه كأصح ما يكون من الرجال ، وهو يبكي وينكت الأرض بأصبعه ويقول :

أَيَا هَجَرَ لَيْلَى قَدْ بَلَغْتَ بِي الْمَدَى
عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
فَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوْى كُلِّ لَيْلَةٍ
تَكَادُ يَدَى تَنْدَى إِذَا مَا لَمَسْتُهَا
وَوَجْهَهُ لَهُ دِيبَاجَةٌ قُرْشِيَّةٌ
وَيَهْتَرُ مِنْ تَحْتِ الثِّيَابِ قَوَامُهَا
فَيَا حَبِّذَا الْأَحْيَاءَ مَا دُمْتَ فِيهِمْ
وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِدِكْرَاكِ نَفْضَةً
عَسَى أَنْ حَبَجْنَا وَاعْتَمَرْنَا وَخُرَّمْتُ
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً
فَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْحَصَى فَلَقَ الْحَصَى
وَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْوُحُوشِ لَمَا رَعَتْ
وَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْبَحَارِ لَمَا جَرَى
قال له نوفل : الحب صيرك إلى ما أرى ؟ قال له : اللهم نعم ، وسيبلغ بي

أكثر مما ترى ، واندفع ينشد :

أَيَا حَدَجَاتِ^(١) الْحَى حِينَ تَحْمَلُوا
بِذِي سَلَمٍ لَا جَادَ كُنْ رَبِيعُ

(١) الحدج بالكسر الحمل ، ومركب للنساء كالحفنة .

وَخَيَّمَا تَكَ اللَّاتِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو نِيَّةً شَقَّتِ الْعَصَا
فَلَوْ لَمْ يَهْجِنِي الظَّاعِنُونَ لَهَا جِنِي
تَدَاعَيْنِ فَاسْتَبْكَيْنِ مَنْ كَانَ ذَاهُوَى
لَعَمْرِي إِنْ يَوْمَ جَرَّ عَاءُ مَالِكِ
وَمَا كَادَ قَلْبِي بَعْدَ أَيَّامٍ جَاوَزَتْ
وَإِنْ أَنَّهُمَ مَالِ الدَّمْعِ يَالَيْلُ كَلَّمَا
نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنِّي نَدَامَةً
لَعَمْرُكَ مَا شَيْءٌ سَمِعْتُ بِذِكْرِهِ
عَدِمْتُكَ مِنْ نَفْسِ شُعَاعٍ فَإِنِّي
فَقَرَّ بَتِي غَيْرَ الْقَرِيبِ وَأَشْرَفْتُ
يُضَعِّفُنِي حُبِّكَ حَتَّى كَأَنَّنِي
وَحَتَّى دَعَانِي النَّاسُ أَهْمَقَ مَاثِقًا
وقال أيضا :

خَلِيلِي هَذَا الرَّبْعُ أَعْلَمُ آيَةٍ
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بَدَلْتُ مَوَدَّتِي
سَأَلْتُكُمَا بِاللَّهِ كَلَّمَا قَضَيْتُمَا
بِجُودِي عَلَى لَيْلَى بِوَدْدِي وَبُخْلِيهَا
أَحِنُّ إِلَيْهَا كَلَّمَا ذَرَّ شَارِقُ

بُلَيْنَ بِلَى مَا إِن لَهْنُ رُجُوعُ
هِيَ الْيَوْمَ شَتَّى وَهِيَ أَمْسُ جَمِيعُ
نَوَاحٍ وَرُقٍ فِي الدِّيَارِ وَقُوعُ
نَوَاحٍ لَا تَجْرِي لَهْنُ دُمُوعُ
لِعَاصٍ لِأَمْرِ الْعَاذِلِينَ مُطِيعُ
إِلَى بِأَجْوَارِ الْبَسْدِي يُرِيعُ
ذَكَرْتُكَ يَوْمًا خَالِيًا لَسَرِيعُ
كَمَا نَدِمَ الْمَغْبُونُ حِينَ يَبِيعُ
كَبِيرُكَ يَأْتِي بَغْتَةً فَيُرُوعُ
نَهَيْتُكَ عَنْ هَذَا وَأَنْتَ جَمِيعُ
هُنَاكَ ثَنَاءًا مَالَهُنَّ طُلُوعُ
مِنْ الْأَهْلِ وَالْمَالِ التَّلِيدِ نَزِيعُ
وَقَالُوا تَبُوعُ لِلضَّلَالِ مُطِيعُ

فَبِاللَّهِ عُوَجًا سَاعَةً ثُمَّ سَلَّمَا
لِلْيَلَى وَأَنَّ الْحَبْلَ مِنْهَا تَصَرَّمَا
عَلَى فَقَدْ وَلِيْتُمَا الْحُكْمَ فَاحْكُمَا
عَلَى سَلَاهَا أَيْنَا كَانَ أَظْلَمَا
كَبِ النَّصَّارَى قُدُسَ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَا

فَوَاللَّهِ ثُمَّ وَاللَّهِ إِنِّي لَصَادِقٌ
 كَلَامُكَ أَشْهَى فَأَعْلَمِي لَوْ أَنَا لَهُ
 وَوَاللَّهِ مَا أُحْبِبْتُ حُبَّكَ فَأَعْلَمِي
 لَقَدْ أَكْثَرَ اللُّوَامُ فِيكَ مَلَامَتِي
 وَقَدْ أُرْسَلْتُ لَيْلَى إِلَى رَسُولِهَا
 فَجِئْتُ عَلَى خَوْفٍ وَكُنْتُ مُعَوِّذًا
 فَبِتُّ وَبَاتْتُ لَمْ نَهْمُ بِرَيْبَةٍ
 وَكَيْفَ أُعْزِي الْقَلْبَ عَنْهَا تَجَلُّدًا
 فَلَوْ أَنَّهُ تَدْعُو الْحَمَامَ أَجَابَهَا
 وَلَوْ مَسَحَتْ بِالْكَفِّ أَعْمَى لَأَذْهَبَتْ
 لَذِكْرُكَ فِي قَلْبِي أَجَلٌ وَأَعْظَمًا
 إِلَى النَّفْسِ مِنْ بَرْدِ الشَّرَابِ عَلَى الظَّمَا
 لِنُكْرِ وَلَا أُحْبِبْتُ حُبَّكَ مَا مِمَّا
 وَكَانُوا لِمَا أَبْدَوْا مِنْ اللُّومِ أَلْوَمًا
 بَانَ اثْنَانِ سِرًّا إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا
 أَحَازِرُ أَيقَظًا عُدَاةً وَنَوْمًا
 وَلَمْ تَجْتَرِحْ يَا صَاحِرَ وَاللَّهِ مُحَرَّمًا
 وَقَدْ أَوْرَثْتُ فِي الْقَلْبِ دَاءً مُكْتَمًا
 وَلَوْ كَلَّمْتُ مَيِّتًا إِذَا لَتَكَلَّمَا

عَمَاهُ وَشَيْكَا ثُمَّ عَادَ بِلَا عَمَى
 مُنْعَمَةٌ تَسْبِي الْحَلِيمِ بِوَجْهِهَا
 تَزَيْنُ مِنْهَا عِفَّةٌ وَتَكْرُمًا
 فَتِلْكَ الَّتِي مَنْ كَانَ دَاءُ دَوَاوُهُ
 وَهَارُوتُ كُلِّ السَّحْرِ مِنْهَا تَعَلَّمَا
 فَلَمَّا أَتَمَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ ، قَالَ لَهُ نُوْفَلٌ : هَلْ لَكَ أَنْ تَجِيءَ مَعِيَ حَتَّى أَقْدِمَ
 بِبِلَادِكَ ، وَأَخْطِبُهَا لَكَ وَأَرْغِبَهُمْ فِي جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : هَلْ أَنْتَ فَاعِلٌ
 ذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَاللَّهِ إِنْ خَرَجْتُ مَعِيَ لِأَجْهَدَنَّ وَلَوْ غَرِمْتُ قَيْكَ مَلِكِي
 وَمَا حَوْتَهُ يَدِي ، ثُمَّ أَمَرَ فَأَدْخَلَ الْحَمَامَ وَأَمَرَ الْحِجَامَ فَأَخَذَ شَعْرَهُ وَغَيْرَ لَحِيَّتِهِ
 وَكَسَاهُ كِسْوَةً فَاحِرَةً ، فَلَمَّا خَرَجَ نُوْفَلٌ أَخْرَجَ الْمَجْنُونُ مَعَهُ ، فَلَمَّا كَانَ
 بِالْقُرْبِ مِنْ بِلَادِهِمْ بَلَغَهُمْ ذَلِكَ فَتَلَقَوْهُ بِالسَّلَاحِ الشَّاكِّ ، وَقَالُوا : وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُ

لجنون منزلنا أبدا وقد أهدر السلطان دمه ، وأقبل عليهم نوفل وأدبر فأبوا
إلا المحاربة وتشمروا للمقارعة ، فلما رأى نوفل ذلك قال : انصرف فإن
الأمر عندهم لصعب ، فانصرف الجنون عنه بخيبة ، وقد كان أمر له نوفل

بقلائص فردها عليه ، وقال ماوفيت لي بالعهد ثلاثا ، وأنشأ يقول :

رَدَدْتُ قَلَائِصَ الْقُرَشِيِّ لَمَّا رَأَيْتُ النَّقْصَ مِنْهُ لِلْيَهُودِ

وَرَأَحُوا مُقْصِرِينَ وَخَلَّفُونِي إِلَى حُزْنٍ أَعْلَجُهُ شَدِيدُ

أَحِبِّ السَّبْتِ مِنْ كَلْفِي بَلِيلِي كَأَنِّي يَوْمَ ذَاكَ مِنَ الْيَهُودِ

وحدثت عن أبي عمرو الشيباني قال : كان سبب توحش الجنون أنه

كان ذات يوم بقرية ، فناداه مناد وهو يقول :

كِلَانَا يَا أَخِي نُحِبُّ لَيْلَى بَنِي وَفِيكَ مِنْ لَيْلَى التَّرَابِ

لَقَدْ خَتَلْتُ فَوَادَكَ بِمَمَّ بَأْتِ بِقَلْبِي فَهُوَ مَهْمُومٌ مُصَابِ

قال فتنفس الصعداء وغشى عليه ساعة فكان سبب توحشه

هذه الأبيات .

قال أبو بكر الوالي : لما انصرف الجنون عن نوفل بخيبة ، وأبى أهلها

أن يزوجه منها ، مر على وجهه والصبيان يصيحون : من أراد أن يرى

عاشقا سمينا فلينظر إلى هذا ، فأنشأ يقول :

أَرَى النَّاسَ أَمَّا مَنْ تَجَدَّدَ وَضَلَّهُ فَعَثَّ وَأَمَّا مَنْ خَلَا فَسَمِينُ

نُخَبِّرُنِي الْأَحْلَامُ أَنِّي أَرَاكُمْ
قَهْدْتُ بِأَنِّي لَمْ أَخُنْكَ مُودَّةً
وَأَنْتَ فَوَّادِي لَا يَلِينُ إِلَى هَوَى
وقال أيضاً :

أَنْفُسُ الْعَاشِقِينَ لِلشَّوْقِ مَرْضَى
عَبْرَاتُ الْمُحِبِّ كَيْفَ تَرَاهَا
لَيْسَ يَخْلُو أَخُو الْهَوَى أَنْ تَرَاهُ
بَاكِيًا سَاهِيًا نَحِيلًا ذَلِيلًا
وقال أيضاً :

أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا غَزَالِينَ نَرْتَمِي
أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا حَمَامِي مَفَازَةٍ
أَلَا لَيْتَنَا حُوتَانِ فِي الْبَحْرِ نَرْتَمِي
* وَيَا لَيْتَنَا نَحْيَا جَمِيعًا وَلَيْتَنَا
ضَجِيعِينَ فِي قَبْرِ عَنِ النَّاسِ مُعْزَلِ
وقال أيضاً :

أَرِقْتُ وَعَادَنِي هَمٌّ جَدِيدُ
أَرَاغِي الْفَرَقْدَيْنِ مَعَ الثُّرَيَّا
فَجِسْمِي لِلْهَوَى نِضْوَةٌ بَلِيدُ
كَذَاكَ الْحُبُّ أَهْوَانُهُ شَدِيدُ

عَلِقْتُ مَلِيحَةَ الْحَدِيدِ وَرَدًّا تَشْبَهُ حُسْنِ مَطْلَعِهَا السُّعُودُ
أَهِيمُ بِذِكْرِهَا وَأَظْلُّ صَبًّا وَعَيْنِي بِالدُّمُوعِ لَهَا تَجُودُ
أَلَا لَيْتَ لَكَ كَأَنَّكَ لَحْدِي إِذَا ضَمَّتْ جَنَازَنَا اللَّحُودُ

قال : فبينما هو ذات يوم يدور إذ أبصر سرًّا من الأطباء فأنشأ يقول :

أَتْرُكُ لَيْلِي لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا سِوَى لَيْلَةٍ إِنِّي إِذَا لَصَبُورُ
هَبُونِي أَمْرًا مِنْكُمْ أَضِلُّ بَعِيرَهُ لَهُ ذِمَّةُ ابْنِ الدِّمَامِ كَبِيرُ
وَالصَّاحِبِ الْمَتْرُوكِ أَعْظَمُ حُرْمَةٍ عَلَى صَاحِبٍ مِنْ أَنْ يَضِلَّ بَعِيرُ
عَفَا اللَّهُ عَنْ لَيْلِي الْفِدَاةَ فَإِنِهَا إِذَا وَلِيَتْ حُكْمًا عَلَى تَجُورُ
فَمَا كَثَرَ الْأَخْبَارُ أَنْ قَدَّرَتْ وَجَتُ فَهَلْ يَأْتِينِي بِالطَّلَاقِ بَشِيرُ

وقيل خرج الملوِّح أبو الجنون في عدة من عشيرته ومعه الجنون ، وذلك قبل أن يفشو أمره ، فمر بوادٍ يقال له البلاكت ، فبينما هم في سيرهم إذ قال الجنون لفتى منهم كان يأنس به ويفشى سره إليه : ويحك إني ذكرت ليلي ، ولا بدَّ والله من الانصراف ، فإن نفسي تكاد تهلك شوقا إليها فناشده فأبى ، فقال : استأذن أباك ، فقال : إذا لا يأذن لي ، ولكن أنا منصرف وحدي ، قال : وأنا معك ، ولكني أعلم أخى فأعلمه ، فقال وأنا معكما ، فتخلفوا كأنهم يقضون حاجة ثم عبروا وحولوا رموس إبلهم وقال :

بَيْنَمَا نَحْنُ بِالْبَلَاكِثِ بِالْقَا عِ سِرَاعًا وَالْعَيْسُ تَهْوِي هَوَا

خَطَرَتْ خَطَرَةً عَلَى الْقَلْبِ مِنْ ذِكْرِكَ وَهَذَا فَمَا اسْتَطَعْتُ مُضِيًّا
قُلْتُ لَبَيْكَ إِذْ دَعَانِي لَكَ الشَّوْقُ قُ وَالْحَادِيَيْنِ كَرُّ الطَّيِّبِ

قال الوالي : فلما طار به الوجد ولم يقدر على النظر خرج متنكرا يريد
حي ليلي ، فلما انتهى إلى قرب الحى بقى متحيرا لم يدر كيف يحتال
ويصنع فى دخول الحى عسى أن ينظر إليها نظرة ، فبينما هو كذلك إذ رأى
عجوزا معها سائل فى عنقه سلسلة تدور به على الأبواب فقال : يا عجوز
ما تريد من هذا السائل ؟ قالت نصف ما يأخذ ، قال : ضعى هذه السلسلة
على عنقي ، وخذى ما على من الثياب ، فوضعتها على عنقه وأقبلت تدور به
على الأبواب والصبيان يرمونه بالحجارة ، ويصيحون بالكلاب عليه ، فلما
صار قريبا من خباء ليلي أنشد يقول :

هَنِيئًا مَرِيئًا مَا أَخَذْتُ وَلَيْتَنِي	أَرَاهَا وَأَعْطَى كُلَّ يَوْمٍ ثِيَابِيَا
وَيَالَيْتَهَا تَدْرِي بِأَنِّي خَلِيَاهَا	وَأَنِّي أَنَا الْبَاكِ عَلَيْهَا بُكَايَا
خَلِيلِي لَوْ أَبْصَرْتُمَنِي وَأَهْلَهَا	لَدَى حُضُورٍ خِلْتُمَنِي سَوَائِيَا
وَلَمَّا دَخَلْتُ الْحَيَّ خَلَفْتُ مُوقِدِي	بِسِلْسِلَةٍ أَسْعَى أَجْرٌ رِدَائِيَا
أَمِيلُ بِرَأْسِي سَاعَةً وَتَقُودُنِي	عَجُوزٌ مِنَ السُّؤَالِ تَسْعَى أَمَامِيَا
وَقَدْ أَحْدَقَ الصَّبِيَانُ بِي وَتَجَمَّعُوا	عَلَى وَشَدُّوا بِالْكَلابِ ضَوَارِيَا
نَظَرْتُ إِلَى لَيْلَى فَلَمْ أَمْلِكِ الْبُكَاءَ	فَقُلْتُ ارْهَمُوا ضَعْفِي وَشِدَّةَ مَا بِيَا

فَقَامَتْ هَيُوبًا وَالنَّسَاءُ مِنْ أَجْلِهَا
مُعَذِّبَتِي لَوْلَاكَ مَا كُنْتُ سَائِلًا
وَقَائِلَةً وَارْحَمَهُ لِسَبَابِهِ
أَصَاحِبَةَ الْمُسْكِينِ مَاذَا أَصَابَهُ
وَمَا بِالْهُ يَبْكِي فَقُلْتُ لِمَا بِهِ
بَنِي عَمَّ لَيْلَى مَنْ لَكُمْ غَيْرَ أَنَّنِي
وَدِدْتُ عَلَى طِيبِ الْحَيَاةِ لَوْ أَنَّهَا
كَفَا زَادَنِي الْوَأَشُونَ إِلَّا صَبَابَةً
فِي أَهْلِ لَيْلَى كَثَرَ اللَّهُ فِيكُمْ
فَمَا مَسَّ جَنْبِي الْأَرْضَ حَتَّى ذَكَرْتُهَا
فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ شَعْرِهِ مَرَّ عَلَى وَجْهِهِ عَرِيَانًا لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ، فَمَرَّ
بِطَبِيبَيْنِ وَهُمَا عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ فَدَنَا مِنْهُمَا وَقَالَ : هَلْ فِيكُمَا مِنْ يَدَاوِينِي ؟
قَالَا : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : الْمَجْنُونُ الْمُسْتَهَامُ ، قَالَا : مَا لِلْعَشَاقِ عِنْدَنَا دَوَاءٌ هُوَ أَبْلَغُ مِنْ
حَبِيبِ ضَبْجِيعَ إِلَى جَنْبِهِ !! فَقَالَ :

طَبِيبَانِ لَوْ دَاوَيْتُنِي أُجْرُتُمَا
فَمَا لَكُمَا تَسْتَغْنِيَانِ عَنِ الْأَجْرِ
فَقَالَا بِحُزْنٍ مَا لَكَ الْيَوْمَ حِيلَةٌ
فَمَتَّ كَمَدًا أَوْ عَزَّ نَفْسَكَ بِالصَّبْرِ
وَقَالُوا دَوَاءُ الْحُبِّ غَالٍ وَدَاوُهُ

رَخِيسٌ وَلَا يُنْبِيكُ شَيْءٌ كَمَنْ يَدْرِي

فَمَا بَرَحَا حَتَّى كَتَبْتُ وَصِيَّتِي

وَنَشَرْتُ أَكْفَانِي وَقُلْتُ احْفَرُوا قَبْرِي

فَمَا خَيْرُ عِشْقٍ لَيْسَ يَقْتُلُ أَهْلَهُ كَمَا قَتَلَ الْعُشَّاقُ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ

الْأَحَبُّ ذَا الْبَيْضِ الْأَوَّانِسُ كَالدَّهْمِيِّ وَإِنْ كُنَّ يُسْكِرُنَ الْفَتَى أَيْمًا سُكْرِ

قَالَ فَمَا مَضَى إِلَّا قَلِيلٌ إِذْ هُوَ بَغْرَابٌ سَاقِطٌ عَلَى شَجَرَةٍ يَنْهَقُ ، فَدَنَا

منه وقال :

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ هَيَّجْتُ لَوْعَتِي فَوَيْحَكَ خَبَّرَنِي بِمَا أَنْتَ تَصْرُخُ

أَبِي الْبَيْنِ مِنْ لَيْلَى فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا

فَلَا زَالَ عَظْمٌ مِنْ جَنَاحِكَ يُفْسَخُ

وَلَا زَالَ رَامٍ فِيكَ فَوْقَ سَهْمِهِ فَلَا أَنْتَ فِي عُشٍّ وَلَا أَنْتَ تَفْرُخُ

وَلَا زِلْتَ عَنْ عَذْبِ الْمِيَاهِ مُنْفَرًّا وَوَكْرُكَ مَهْدُومًا وَبَيْضُكَ يُرْضَخُ

فَإِنْ طَرُتَ أَرَدَتْكَ الْحُتُوفُ وَإِنْ تَقَعَّ

تَقِيضُ ثُعْبَانٌ بِوَجْهِكَ يَنْفُخُ

وَعَايَنْتَ قَبْلَ الْمَوْتِ لَحْمَكَ مُشَدَّخًا عَلَى جَمْرٍ حَرِّ النَّارِ يُشْوِي وَيُطْبِخُ

وَلَا زِلْتَ فِي شَرِّ الْعَذَابِ مُخَلَّدًا وَرَيْشُكَ مَنُتَوِّفٌ وَلَحْمُكَ يُشْرِخُ

وقال :

أَقُولُ وَقَدْ صَاحَ ابْنُ دَابَّةٍ غُدُوَّةً يَبْعِدُ النَّوَى لَا أَخْطَأُكَ الشَّبَائِكُ

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ رَأَيْتِي أَنْتَ رَوْعَةً
وَلَا بَضَتْ فِي خَضِرَاءِ مَا عِشْتَ بَيْضَةً
وَفَارَقْتَ أُمَّ الْأَفْرُخِ السُّوءِ عَنْ قَلِيٍّ

وَنَاحَتْ عَلَى ابْنَيْكَ الضَّرُوسُ الْمَاحِكُ
وَأَصْبَحْتَ مِنْ بَيْنِ الْأَحِبَّةِ هَالِكًا

وقال :

أَمِنْ أَجْلِ غِرْبَانٍ تَصَائِحْنَ غُدُوَّةً
نَعَمْ جَادَتْ الْعَيْنَانِ مِنِّي بِعَبْرَةٍ
أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ لَاحَتْ بَعْدَهُ
يَرُوعُ قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ ذَوِي الْهَوَى
وَعُدُّ سَوَاءَ الْحُبِّ وَاتْرُكْهُ خَالِيًا

ثم مضى عَلَى وجهه ، فبينما هو يدور إِذْ مرَّ بِأَطْيَارٍ عَلَى أَشْجَارٍ يُجَاوِبُ

بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَهْدِرُنَ فِدَانًا مِنْهُمْ وَقَالَ :

أَلَا يَا حَمَامَاتِ الْحِمَى عُدْنَ عَوْدَةً
فَعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ عُدْنَ لِشَقَوَتِي
وَعُدْنَ بِقَرَقَارٍ الْهَدِيرِ كَأَنَّمَا
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ حَمَامًا

فَإِنِّي إِلَى أَصْوَاتِكُنَّ حَنُوفٌ
وَكَدْتُ بِأَسْرَارٍ لَهْنٌ أَبِينُ
شَرِبْنُ مُدَامًا أَوْ بِهِنَ جُنُوفٌ
بَكَيْنٌ فَلَمْ تَدْمَعْ لَهْنٌ عِيُونُ

وَكُنَّ سَحَابَاتٍ جَمِيعًا بَعِثَلٍ
فَأَصْبَحْنَ قَدْ قَرَّ قَرْنٌ إِلَّا سَحَابَةً
تَذَكَّرُنِي لَيْلَى عَلَى بُعْدِ دَارِهَا
إِذَا مَا خَلَا لِلنَّوْمِ أَرْقَ عَيْنَهُ
تَدَاعَيْنِ مِنْ بَعْدِ الْبُكَاءِ تَأَلَّفَا
فِيَالَيْتَ لَيْلَى بَعْضُهُنَّ وَلَيْتَنِي
إِنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْرُ رَأْنَةٍ
وقال أيضاً :

أَجْدَكَ يَا سَحَابَاتٍ بِطَوِّقٍ
أَغْرَكَ يَا سَحَابَاتٍ طَرِيقُ
وَإِنِّي قَدْ بَرَّانِي الْحُبُّ حَتَّى
أَرَادَ اللَّهُ مَحَلَّكَ فِي السَّلَامِي
وَلَسْتُ وَإِنْ حَنَنْتُ أَشَدَّ وَجْدًا
وَبِي مِثْلُ النَّبِيِّ بِكَ غَيْرَ أُنِي
أَمَا وَاللَّهِ غَيْرَ قَلِي وَبُغْضٍ
لَقَدْ جُعِلْتُ دَوَاوِينَ الْغَوَايِ
فَقَدْ مَا كُنْتُ أَرْجَى النَّاسِ عِنْدِي
فَقَدْ هَيَّجَتْ مَشْغُوفًا حَزِينًا
بِأَنِّي لَا أَنَامُ وَتَهْجَعِينَا
ضَنْبَيْتُ وَمَا أَرَاكَ تُغَيِّرِينَا
إِلَى مَنْ بِالْحَنِينِ تُشَوِّقِينَا
وَالْكُنَى أَسْرُ وَتُعَلِّقِينَا
أَحَلَّ عَنِ الْعِقَالِ وَتُعَلِّقِينَا
أَسْدُ وَلَمْ أَزَلْ جَزَعًا حَزِينًا
سِوَى دِيَوَانِ لَيْلَى مُمَحَلِّينَا
وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى مَا تَطْلُبِينَا

أَلَا لَا تَنْسِينَ رَوْعَاتِ قَلْبِي وَعِصْيَانِي عَلَيْكَ الْعَازِلِينَ
وقال أيضاً :

أَنْ سَجَعْتُ فِي بَطْنِ وَادٍ حَمَامَةٍ تُجَاوِبُ أُخْرَى دَمْعُ عَيْنِكَ دَافِقُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بُكَاءَ حَمَامَةٍ بَلِيلٌ وَلَمْ يَحْزُنْكَ إِلْفٌ مُفَارِقُ
وَلَمْ تَرَ مَفْجُوعًا بِشَيْءٍ يُحِبُّهُ سِوَاكَ وَلَمْ يَعْشُقْ كَعَشِقِكَ عَاشِقُ
بَلَى وَأَفِيقُ عَنْ ذِكْرِ لَيْلَى فَإِنَّمَا

أَخُو الْحُبِّ مَنْ ذَاقَ الْهَوَى وَهُوَ تَائِقُ

ثم جلس متفكراً حزينا ، ثم هام على وجهه ، فبينما هو سائر إذ مر

بسرب من قطا يتطاير فقال :

شَكَوْتُ إِلَى سِرْبِ الْقَطَا إِذْ مَرَرَنْ بِي

فَقُلْتُ وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ

أَسِرْبَ الْقَطَاهِلِ مِنْ مُعِيرِ جَنَاحِهِ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيرُ

وَأَيُّ قَطَاةٍ لَمْ تُعِرْنِي جَنَاحَهَا فَعَاشَتْ بِضُرٍّ وَالْجَنَاحُ كَسِيرُ

وَالْأَفَنُ هَذَا يُودِّي رِسَالَةً فَأَشْكُرُهُ إِنَّ الْمَحِبَّ شَكُورُ

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو صَبَوْتِي بَعْدَ كُرْبَتِي

وَنِيرَانُ شَوْقِي مَا بِهِمْ فَتُورُ

فَإِنِّي لِقَاسِيِ الْقَلْبِ إِنْ كُنْتُ صَابِرًا غَدَاةً غَدٍ فِيمَنْ تَسِيرُ كَسِيرُ

فَإِنْ لَمْ أُمْتَ غَمًّا وَهَمًّا وَكَرْبَةً
إِذَا جَلَسُوا فِي مَجْلِسٍ نَذَرُوا دَمِي
وَدُونَ دَمِي هَزُّ الرِّمَاحِ كَأَنَّهَا
وَزُرُقُ مَقِيلِ الْمَوْتِ تَحْتَ ظُبَاتِهَا^(١)
إِذَا غَمَزَتْ أَصْحَابَهُنَّ تَرَسَّمَتْ
قِطْعَنَ الْحَصَى وَالرَّمْلَ حَتَّى تَفْلَقَتْ
وَقَالَتْ أَخَافُ الْمَوْتَ إِنْ يَشْحَطِ النَّوَى

فِيَا كَبِدًا مِنْ خَوْفٍ ذَاكَ تَغُورُ
سَأَلُوا أُمَّ عَمْرٍو هَلْ يُنَوِّلُ عَاشِقُ
أَلَا قُلْ لِلْيَمْلِ هَلْ تَرَاهَا مُجِيرَتِي
أَظَلُّ بِحُزْنٍ إِنْ تَغَنَّتْ سَحَابَةٌ
أَخُو سَقَمٍ أَمْ هَلْ يَفُكُّ أَسِيرُ
بَكَتْ حِينَ دَرَّ الشَّوْقُ لِي وَتَرَسَّمَتْ
فَإِنِّي لَهَا فِيمَا لَدَى مُجِيرُ
لَهَا رُفْقَةٌ يُسَعِدُنَهَا فَكَأَنَّمَا
مِنْ الْوُرُقِ مِطْرَابُ الْعَشِيِّ بُكُورُ
بَجَزَعٍ مِنَ الْوَادِي فَضَاءٌ مَسِيلُهُ
فَلَا صَحْلٌ^(٢) تُرَى بِي بِهِ وَصَفِيرُ
يَهْ بِقَرٍّ لَا يَبْرَحُ الدَّهْرُ سَاكِناً
تَعَاطَيْنَ كَأَسَا يَنْهَنُّ تَدُورُ
وَأَعْلَاهُ أَثْلُ نَاعِمٍ وَسَدِيرُ
وَأَخَرُ وَخَشْيُ السَّخَالِ يَثُورُ

(١) الظُّبَاتُ : جمع ظُبَّة ، وهي حدة السيف .

(٢) صَحْلٌ صوته كفرح : يَحْ .

وقال أيضاً :

أَجَدَّ بِأَحْيَاءِ الْجَمِيعِ بُكُورُ
وَشَقَّ عَصَا الْحِيرَانِ يَوْمَ تَرَحَّلُوا
بِرَاعَةِ مَكْرُوهٍ مِنَ الْبَيْنِ لَمْ يَكُنْ
مُحِبُّ أَتَاهَا أَنَّ مَا بَيْنَ بَيْتَيْهِ
أَيَذْهَبُ عَقْلِي بَعْدَ عِلْمِي وَإِنْ عَلَا
وَمُسْتَجْهِلِي بَعْدَ التَّحَلُّمِ نِسْوَةٌ
تَعَوَّدَنْ قَتَلَ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّمَا
وَقُلْنَ تَزَوَّجْ وَادْعُ مَا كَانَ بَيْنَنَا
أَرَدَنْ بَلَاءِي مَا قُضِيَ لِبَانَةٍ

وقال أيضاً :

شَغِفَ الْفُؤَادُ بِجَارَةِ الْجَنْبِ
يَا جَارَتِي أُمْسَيْتِ مَا لِكَةٍ رُوحِي
وَفُظِّلْتُ ذَا أَسْفٍ وَذَا كَرْبِ
وَعَالِبَةٍ عَلَى لِي

وذكر أبو إسحاق بن المهيم أن رجلاً مرَّ بإبلى وهي واقفة على باب
خباياها ، فقالت : أين تريد يا عبد الله ؟ فقال : أريد بني عامر ، فزفرت
زفرة وقالت :

يَأَيُّهَا الرَّأَكِبُ الْمَرْجِي مَطِيَّتُهُ
عَرَّجَ لِأُنْبِي عَنِّي بَعْضَ مَا أُجَدُّ

فَمَارَأَى النَّاسُ مِنْ وَجْدِي تَضَمَّنَهُمْ
إِلَّا وَوَجْدُهُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي أُجِدُّ
هُوَ رِضَاهُ وَإِنِّي فِي مَوَدَّتِهِ
وَحُبِّهِ آخِرَ الْأَيَّامِ أَجْتَهِدُ

فلما بلغ المجنون ذلك كتب إليها مع ذلك الرجل :

أَنْتِ الَّتِي كَأَفْتَنِي دَلَجَ الشَّرِّ
وَجُونُ الْقَطَا بِالْجَلَهَتَيْنِ جُثُومُ
أَنْتِ الَّتِي قَطَعْتَ قَلْبِي حَرَارَةً
وَرَقَرَقْتَ دَمْعَ الْعَيْنِ فَهَوَ سَجُومُ
أَنْتِ الَّتِي أَغْضَبْتِ قَوْمِي كُلَّهُمْ
بُعَيْدَ الرِّضَى دَانِي الصُّدُودِ كَظِيمُ
أَنْتِ الَّتِي أَخْلَفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي
وَأَشْمَتَ بِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ
أَبْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ ثُمَّ تَرَكَتَنِي
لَهُمْ غَرَضًا أُرْمَى وَأَنْتِ سَلِيمُ
فَلَوْ أَنَّ قَوْلاً لَا يَسْكُلُ^(١) الْجِسْمَ قَدْ بَدَأَ
بِجِسْمِي مِنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ كُلُّهُمْ

ثم قال : إن المجنون اعتل بعله فبعثت إليه ليلي تسوده وتقول : إن

نهيأت زيارتك غداً فعلت ، فقال :

نَمُودُ مَرِيضًا أَسْقَمَتُهُ بِهِجْرُهَا
وَلَا عَادَتُهُ عَادَ لَا يَعْرِفُ السَّقَمَا
لَقَدْ أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارًا مِنَ الْجَوَى

فَمَا تَرَكَتْ عَظْمًا وَلَا تَرَكَتْ لَحْمًا

وَإِنِّي عَلَى هُجْرَانِهَا وَصُدُودِهَا
وَمَا حَلَّ بِي مِنْهَا أَرَى حُبَّهَا حِمَاً
خَلِيلِي كُفًّا لَا تَلُومًا مُتَيَّمًا
وَلَا تَقْتُلًا صَبًّا يَلُومُكَ ظُلْمًا

وقال أيضاً :

وَمِمَّا شَجَّانِي أَنَّهَا يَوْمَ وَدَّعْتُ
تَقُولُ لَنَا : أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ مَنْ أُدْرِى

(١) كلمته كلما من باب قتل : جرحته .

وَكَيْفَ أُعَزِّي النَّفْسَ بَعْدَ فِرَاقِهَا
وَقَدْ ضَاقَ بِالسَّكِيمَانِ مِنْ حُبِّهَا صَدْرِي
فَوَاللَّهِ وَاللَّهِ الْعَزِيزِ مَكَانُهُ

وَقَدْ كَادَ رُوحِي أَنْ يَزُولَ بِلَا أَمْرِي
خَلِيلِي مُرًّا بَعْدَ مَوْتِي بِثَرْبَتِي
قال أبو بكر : مرَّ رجل بالجنون وهو يتردى في الرمل ، فقال : مالك
يا أبا المهدى ؟ فقال :

بِي الْيَوْمَ مَا بِي مِنْ هَيْأَمٍ أَصَابَنِي
كَانَ دُمُوعَ الْعَيْنِ تَسْقِي جُفُونَهَا
عَرُوبًا أَثَرَتْهَا نَوَاضِحُ مُعَرِبٍ
أَمَرْتُ فَمَاضَتْ مِنْ فُرُوعِ حَبِيشَةٍ
فَإِيَّاكَ عَنِّي لَا يَكُنْ بِكَ مَا بِيَا
غَدَاةَ رَأَتْ أَطْعَامَ لَيْلِي غَوَادِيَا
مُعَلَّقَةً تُرَوِي نَحِيلًا صَوَادِيَا
عَلَى جَبَدُولٍ يَعْلُوفُنَا مُتَعَادِيَا
بِدَيْمُومَةٍ قَفَرًا وَأُنْزِلْتُ جَادِيَا
وَقَدْ بَعْدُوا وَاسْتَطَرُّوا أَلَالَ دُونَهُمْ

قال : ثم تأوّه واستعبر فرأيت دموعه تتبادر على خده كاللؤلؤ المنثور
وسمط الجمان المفصل بالشذور شفعًا ووترًا ، وقال :

ذَكَرْتُ عَشِيَّةَ الصَّدَفَيْنِ لَيْلِي
إِذَا حَالَ الْغُرَابُ الْجَوْنَ (١) دُونِي
عَلَى أَلِيَّةٍ إِنْ كُنْتُ أُدْرِي
لَهَا فِي طَرْفِهَا لَحْظَاتُ حَتْفٍ
وَكُلَّ الدَّهْرِ ذِكْرَاهَا جَدِيدُ
فَمُنْقَلَبِي إِلَى لَيْلِي بَعِيدُ
أَبْنَقُصُ حُبِّ لَيْلِي أَمْ يَزِيدُ
نَمِيتُ بِهَا وَتُحْيِي مِنْ تَرِيدُ

(١) الجون يطلق بالاشتراك على الأبيض والأسود ، والجمع جون .

إِنْ غَضِبْتَ رَأَيْتَ النَّاسَ هَالِكِينَ وَإِنْ رَضِيتَ نَأْرُوحَ تَعُودُ
فَقُلْنَ لَقَدْ بَكَيتَ فَقُلْتُ كَلًّا وَهَلْ يَبْكِي مِنَ الطَّرَبِ الْجَلِيدُ
وَلَكِنْ قَدْ أَصَابَ سَوَادَ عَيْنِي عَوِيدُ نَدَى لَهُ طَرْفُ حَلِيدُ
فَقُلْنَ فَمَا لِدَمْعِهِمَا سَوَالٍ أَكَلْنَا مُقْلَتَيْكَ أَصَابَ عُودُ
وقال أيضا :

أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْهَوَى مَا أَشَدَّهُ وَأَسْرَعَهُ الْمَرَّةَ وَهُوَ جَلِيدُ
دَعَانِي الْهَوَى مِنْ نَحْوِهَا فَأَجَبْتُهُ فَأَصْبَحَ بِي يَسْتَنُّ حَيْثُ يُرِيدُ
حدثنا : أبو عمرو الشيباني قال : حدثني نوفل بن مساحق ، قال :
خرجت يوما أتضيف الأروى^(١) ومعى جماعة من أصحابي ، فلما صرت
بناحية الحمى إذ أنا بأراكة قد بدا منها قطيع من ظباء في شخص إنسان
يرى في ظل تلك الأراكة ، فتعجب أصحابي منه وعرفته ساعة رأيت ،
فتخففت من ثيابي وخرجت أمشي رويدا حتى أتيت الأراكة فرقيت
عليها وأشرفت عليه وعلى الظباء ، وإذا أنا به قد تدلى الشعر على حاجبيه
وعينييه ، فلم أكاد أعرفه إلا بعد هوى من النهار وهو يرتعى من ثمر
الأراك لا يرفع رأسه ، فتمثلت بشيء من شعره ، وهو :

عَلَى ذِمَّتِي دَارٌ لِيَلِي كَأَنَّمَا إِزَارَانِ مِنْ بُرْدٍ لَهَا خِلَقَانِ
وَكَيفَ إِلَى لَيْلِي إِذَا رَمَّ أَعْظَمِي وَصَارَ وَسَادِي مَنْكِي وَبَنَانِي

(١) الأورى : جمع كثرة للأروية ، وتجمع على أراوى وهي الأيايل ، وقيل
غنم الجبل .

وَحَلَّتْ بِأَعْلَى بَيْشَتَيْنِ فَأَصْبَحَتْ يَمَانِيَّةً وَالرَّهْمُسُ غَيْرَ يَمَانٍ
 وَقِيلَ إِنَّ الْمَجْنُونِ لَمَّا شَهَرَ أَمْرَهُ بَلِيلِي خُطِبَتْ لَهُ فَأَبَى أَبُوهَا أَنْ يَزُوجَهَا
 وَهَكَذَا كَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا شَهَرَ رَجُلٌ بِحُبِّ امْرَأَةٍ لَمْ يَزُوجْهَا مِنْهُ ، فَاشْتَدَّ
 وَجْدُهُ ، وَتَرَاقَتْ سُورَةُ عَشْقِهِ ، وَكَانَ لَهُ عَمٌّ يُقَالُ لَهُ يَزِيدُ ، وَكَانَ شَجَاعًا
 بَطَلًا آلَى أَنْ لَا يَتَزَوَّجَ الْمَجْنُونُ بَلِيلِي وَلَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا قَتَلَهُ
 ذَانِشَا يَقُولُ :

أَلَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الَّذِي مَا بِنَا يَرْضَى

شَقِيتَ وَلَا أَدْرَكَتَ مِنْ عَيْشِكَ الْخَفْضَا
 شَقِيتَ كَمَا أَشَقِيتَنِي وَتَرَكَتَنِي أَهِيْمُ مَعَ الْهَلَاكِ لَا أَطْعَمُ الْغَمَضَا
 أَمَا وَالَّذِي أَبْلَى بَلِيلِي بَلِيَّتِي وَأَصْنَفِي لِلْيَلَى مِنْ مَوَدَّتِي الْمَحْضَا
 لَا أُعْطِيتُ فِي لَيْلَى الرِّضَا مِنْ يَبِيْعَهَا

وَلَوْ أَكْثَرُوا لَوْحِي وَلَوْ أَكْثَرُوا الْقَرَضَا
 فَكَمْ ذَاكَ لَيْلَى يَعِيشُ بِكَرْبَةٍ
 وَحَقَّ الْهَوَىٰ إِنِّي أَحْسُنُ مِنَ الْهَوَىٰ
 عَلَى كَبْدِي نَارًا وَفِي أُعْظَمِي مَرَضَا
 كَانَ فُؤَادِي فِي مَخَالِيبِ طَائِرٍ
 إِذَا ذَكَرَتْهَا النَّفْسُ شُدَّتْ بِهِ قَبْضَا
 كَانَ فِجَاجَ الْأَرْضِ خَلْقَةً خَاتَمٍ
 عَلَى كَفِّهَا تَزْدَادُ طَوْلًا وَلَا عَرَضَا
 وَأُغْشَىٰ فَيُحْمَىٰ لِي مِنَ الْأَرْضِ مَضْجَعِي

وَأُصْرِعُ أَحْيَانًا فَأَلْتَزِمُ الْأَرْضَا

ضَيْتُ بِقَتْلِي فِي هَوَاهَا لِأَنِّي أَرَى حُبَّهَا حَتْمًا وَطَاعَتَهَا فَرَضًا
ذَا ذُكِرْتُ لَيْلَى أَهْمٌ لِدِكْرِهَا

وَكَانَتْ مَنَى نَفْسِي وَكُنْتُ كَمَا أَرْضَى

إِنْ رُمْتُ صَبْرًا أَوْ سُلُوءًا بِغَيْرِهَا رَأَيْتُ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ دُونِهَا بَعْضًا

قال : إنما سمع عنه هذه الأبيات رقيق قلبه له ، وقال : لا يتزوجها أحد

سوى ابن أخى إلا قتلته ، فكث برهة من دهره ، ثم إن يزيد هلك
فأنشأ يقول :

خَلِيلِي هَلْ قَيْظٌ بِنُعْمَانَ رَاجِعٌ لِيَا لَيْلَى أَوْ أَيَّامُنَّ الصَّوَالِحُ
لَا لَا وَلَا أَيَّامُنَا بِمَتَالِحِ رَوَاجِعٍ مَا أَوْرَى بَزَنْدَى قَادِحُ
إِذَا الْعَيْشُ لَمْ يَكْدُرْ عَلَى وَلَمْ يَمُتْ

يَزِيدُ وَذُلِّي ذُو الْعَقِيْدَةِ نَاصِحُ

قال فخطبوها من كل جانب ، فأخبرت أن أبا ليلى حج بها فراها ،

رجل من ثقيف فخطبها فزوجه ، فبلغ ذلك المجنون فأنشأ يقول :

أَلَا إِنْ لَيْلَى الْعَامِرِيَّةَ أَصْبَحَتْ تَقَطَّعُ إِلَّا مِنْ ثَقِيفٍ حَبَالُهَا
إِذَا التَّفَتُّ وَالْعَيْسُ صُعُرٌ مِنَ الْبَرَى

بِنَخْلَةٍ غَشَّى عُبْرَةَ الْعَيْنِ حَالُهَا

فَهُمْ حَبَسُوهَا مُحَبَسَ الْبُذْنِ وَابْتَغَى بِهَا الْمَالَ أَقْوَامٌ لَا قَلَّ مَالُهَا

وقال أيضا :

أَلَا يَا بَائِعِي أَيْلَى بِمَكَّةَ ضِلَّةً تَبَايَهْتُمَا هَلْ يَسْتَوِي الثَّمَانِ
فَمَا غِنِ الْمُبْتَاعُ لَيْلَى بِمَالِهِ بَلِ الْبَائِعَا لَيْلَى هُمَا غِنَانِ

وقال أيضا :

حَبِيبُ نَأَى عَنِّي الزَّمَانُ بِقُرْبِهِ فَصَيَّرَنِي فَرْدًا بِغَيْرِ حَبِيبِ
فَلِي قَلْبٌ مَحْزُونٌ وَعَقْلٌ مُدَلَّلٌ وَوَحْشَةٌ مَهْجُورٌ وَذُلٌّ غَرِيبِ
فَيَا حُقْبَ الْأَيَّامِ هَلْ فِيكَ مَطْمَعٌ لِرَدِّ حَبِيبٍ أَوْ لِدَفْعِ كُرُوبِ

حكى الوالي : قال حدثنا رجل عن إسحق بن إبراهيم الموصلي ، قال :
خرج رجل منا إلى ناحية الشام وبلاد نجد في طلب بهير له ، فأتى أحياء
بنى عامر ، فإذا خيمة رفعت له فقصدتها وقد بل المطر ثيابه ، فلما دنا إذا
امرأة كلمته فقالت : انزل أيها الرجل ، قال : فنزلت وحططت رحلي وراحت
إياهم وغنمهم ، فإذا نعم كثيرة ، ورحل خصيب ، فقالت لبعض من كان
مع الإبل : سلوا هذا الرجل من أين أقبل ؟ فقلت من ناحية نجد وتهامة ،
فقالت يا عبد الله : بمن نزلت هناك ؟ قلت ببني عامر ، فتتنفست الصعداء
فقالت : بأبي ونفسي بنو عامر ، ثم قالت : وهل سمعت بفتى يقال له قيس
ويلقب بالجنون ؟ فقلت : نعم والله نزلت بأبيه ، ولقد أتيتته حتى نظرت
إليه يهيم في الصحراء مع الوحوش لا يعقل حتى تذكر له ليلي ، فإذا ذكرها
تاب إليه عقله فيحدث بحديثها ، وينشد شعره فيها ، قال فرفعت الستر

بينى و بينها فإذا هى شقة قمر لم ترعيني قط أجهل منها . وقالت : هل تروى
شعره . قلت : بلى هو الذى يقول :

أَنْبِرِي مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَفَلَ الْبَدْرُ

وَقُومِي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأْخَرَ الْفَجْرُ	فَقِيكِ مِنَ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ ضَوْؤُهَا
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكَ التَّبَسُّمُ وَالشَّعْرُ	بَلَى لَكَ نُورُ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ كُلُّهُ
وَلَا حَمَلَتْ عَيْنُكَ شَمْسٌ وَلَا بَدْرُ	لَكَ الشَّرْقَةُ اللَّالَاءُ وَالْبَدْرُ طَالِعُ
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكَ التَّرَائِبُ وَالنَّحْرُ	وَمِنْ أَيْنَ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ بِالضُّحَى
بِمَكْحُولَةِ الْعَيْنَيْنِ فِي طَرْفِهَا فَتْرُ	وَأَنَّى لَهَا مِنْ دَلٍّ لَيْلَى إِذَا انْتَدَتْ
بِعَيْنَيْ مَهَاةِ الرَّمْلِ قَدْ مَسَّهَا الدُّعْرُ	تَبَسُّمُ لَيْلَى عَنْ ثَنَاءٍ كَأَنَّهَا
إِقَاحٌ بِجَرَعَاءِ الْمُرَاضِينَ أَوْ دُرُ	مُنْعَمَةٌ لَوْ بَاشَرَ الدَّرُّ جِلْدَهَا
لَأَثَرَ مِنْهَا فِي مَدَارِجِهَا الدَّرُّ	إِذَا أَقْبَلَتْ تَمْشِي تَقَارِبَ خَطُوهَا
إِلَى الْأَقْرَبِ الْأَذْنَى تَقَسَّمَهَا الْبَهْرُ	مَرِيضَةً أَثْنَاءَ التَّعَطُّفِ إِنَّهَا
تَخَافُ عَلَى الْأُرْدَافِ يُثَامِهَا الْخَصْرُ	كَمَا أُمُّ خَشْفٍ بِالْعَقِيقَيْنِ تَرْعَوِي
إِلَى رَشَائِ طِفْلِ مَفَاصِلِهَا خِدْرُ	بِمُخْضَلَةٍ جَادَ الرَّبِيعُ زُهَاءَهَا
رَهَائِمُ وَشَمِي سَحَابِيهِ غُرُرُ	وَقَفْنَا عَلَى أَطْلَالِ لَيْلَى عَشِيَّةَ
بِأَجْرَعِ حَزْوَى وَهِيَ طَامِسَةٌ دُثْرُ	يُجَادُ بِهَا مَزْنَانِ اسْحَمُ بَاكِرُ
وَأَخْرُ مِعْهَادُ الرُّوَّاحِ لَهَا زَجْرُ	

وَأَوْفَى عَلَى رَوْضِ الْحَزَامَى نَسِيمَهَا

وَأَنْوَارُهَا وَاخْضَوْضُهَا الْوَرَقُ النَّضْرُ

رَوَاحًا وَقَدْ حَنَّتْ أَوَائِلَ لَيْلِهَا رَوَاحُ لِلْإِظْلَامِ أَلْوَانُهَا كُذْرُ

تَقَلُّبُ عَيْنِي خَازِلٍ بَيْنَ مُرْعَوْ وَآثَارِ آيَاتٍ وَقَدْ رَاحَتِ الْفُغْرُ

بِأَحْسَنَ مِنْ نَيْلَى مُعِيدَةٍ نَظَرَةٍ إِلَى التِّفَاتِ حِينَ وَلَّتْ بِهَا الشُّفْرُ

مُحَازِيَةً عَيْنِي بِدَمْعٍ كَأَنَّمَا تَحَلَّبُ مِنْ أَشْفَارِهَا دُرَرٌ غُرَرُ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا مُقَلَّةً لَمْ أَكْذُ بِهَا أَشِيمُ رُسُومِ الدَّارِ مَا فَعَلَ الذِّكْرُ

زَفَعَنَ بِهَا خُوصَ الْعُيُونِ وَجَوَّهَا مُلْفَعَةً تُرَبًّا وَأَعْيُنُهَا غُرَرُ

وَمَا زِلْتُ مَحْمُودَ التَّصَبُّرِ فِي الَّذِي

يَنْوُبُ وَلَسَكِنْ فِي الْهَوَى كَيْسَ لِي صَبْرُ

فَقَالَتْ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ فَأَنْشَدْتُهَا :

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُنِي وَلَيْلَى كَفَاكَ بِذَاكَ فِيهِ لَنَا تَدَانِي

تَرَى وَضَحَ النَّهَارِ كَمَا أَرَاهُ وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي

قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَتَمَّتِ الْبَيْتَيْنِ حَتَّى شَهَقَتْ شَهَقَةً وَسَقَطَتْ عَلَى وَجْهِهَا

تَبْكِي حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْ كَبِدَهَا قَدْ تَصَدَّعَتْ ، فَقَالَتْ : يَا هَذِهِ أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ

الَّذِي إِلَيْهِ مَعَادُكَ ؟ فَمَا عَقَلْتُ مَا قُلْتُ لَهَا ، ثُمَّ قَامَتْ بَعْدَ حِينٍ

وَأَنْشَأَتْ تَقُولُ :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْخُطُوبُ كَثِيرَةٌ

مَتَى رَحُلُ قَيْسٍ مُسْتَقِيلٌ فَرَاجِعُ

بِنَفْسِي مَنْ لَا يَسْتَقِيلُ بِرَحْلِهِ وَمَنْ هُوَ إِنْ لَمْ يَحْفَظِ اللَّهُ ضَائِعُ

ثم أقمت عندها ثلاثاً تسألني عن خبره وتبكي بكاء يتوجع لها كبدي

فوالله ما ظننت أحدا يجد كوجدها ولوعتها ، فلما أردت الرحيل سألت

عنها فإذا هي ليلي العامرية .

وذكر قيس بن معمر قال : قلت لليلى من أعر خلق الله عليك ؟ قالت من

إذا عثرت نهضت باسمه ، وإذا رقدت حلت بوجهه ، قيس بن الملوح ، قلت

فهل قلت في ذلك شعرا ؟ قالت نعم وأنشأت تقول :

إِذَا ذَهَلَتْ رَجُلِي بَدَأْتُ بِذِكْرِهِ وَأَحْلُمُ فِي نَوْمِي بِهِ وَأَعِيشُ

إِذَا ذُكِرَ الْمَجْنُونُ زِلْتُ بِذِكْرِهِ قُوسِي النَّفْسِ أَوْ كَادَ الْفُؤَادُ يَطِيشُ

وَوَاللَّهِ مَا كَادَ الْفُؤَادُ يُجِنُّهُ وَإِنْ كَانَ صَدْرِي مِنْ هَوَاهُ يَجِيشُ

قال : أبو جائق لبيد بن عنبرة : حدثني بعض الرواة أنه قيل لليلى

العامرية : والله لئن لم تنتهي عن ذكره لنقتلنك معا ، فبعثت إلى القائل

على يد مولاة لها رقعة مكتوبا فيها :

تَوَعَّدَنِي قَوْمِي بِقَتْلِي وَقَتْلِهِ

فَقُلْتُ اقْتُلُونِي وَاتْرُكُوهُ مِنَ الذَّنْبِ

وَلَا تُتْبِعُوهُ بَعْدَ قَتْلِي ذِلَّةً كَفَى بِالَّذِي يَلْقَاهُ مِنْ سُورَةِ الْحُبِّ

وقال الحسن بن سهل : أنشدني أحمد بن إسماعيل الكاتب

لليلة العامرية :

قَدْ كُنْتُ حَازِرَةً لِلدَّهْرِ عَارِفَةً أَنْ سَوْفَ يَطْلُبُنِي بِالرَّحْمَى مُفْتَقِدًا
حَتَّى رَمَانِي بِمَنْ قَدْ جَلَّ عَنْ صِفَتِي فَمَا أَرَى لِي بِهِ وَيْلِي الْغَدَاةَ يَدَا
لَقِيتُ الدَّوَاءَ بِمَاءِ الْعَيْنِ ثُمَّ بَدَأَ كَتَبْتُ مَا يَكُتُبُ الْمَجْهُودُ إِذْ جَهْدًا
هَذَا الْوِدَاعُ لِمَنْ رُوحي الْفِدَاءُ لَهُ قَدْ خِفْتُ أَنْ لَا أَرَاهُ بَعْدَهُ أَبَدًا

قال أبو بكر : ذكر أن المجنون لما تراكمت علته إلى صعوبة وعسر
علاجه ، وأعيى الأطباء دواؤه ، ولم ينبجع فيه الدواء ، وصار إلى أسوأ حالة
من توحشه في الصحارى ، شق ذلك على ليلى وأذهلها ، فدعت بغلام
وكتبت إليه : بسم الله الرحمن والله يا ابن عم إن الذي بي أضعاف ما بقلبك
ولكن وجدت السترة أبقى للمودة وأحمد في العاقبة ، وكتبت آخره :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَلْقَى وَمَا بِي مِنَ الْهَوَى بِأَرْعَنَ رُكْنَاهُ صَفَاً وَحَسِيدُ
تَقَطَّعَ مِنْ وَجْدٍ وَذَابَ حَسِيدُهُ وَأُمْسَى تَرَاهُ الْعَيْنُ وَهُوَ عَمِيدُ
ثَلَاثُونَ يَوْمًا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَمُوتُ وَأَحْيَا إِنْ ذَا لَشَدِيدُ

وأمرت الغلام بطلبه حيث كان من الأرض وردَّ الجواب عنه ، ثم مضى
الغلام ولم يزل يطلبه في الصحارى حتى أصابه في يوم صائف شديد القيظ
والسموم ، فجدَّ لجأ إلى كهف جبل عظيم وهو مطرق ينكت الأرض
بأصبعه ويقول :

أَحِنُّ إِلَى لَيْلَى وَإِنْ شَطَّتِ النَّوَى بِلَيْلَى كَمَا حَنَّ الْيَرَّاعُ الْمُثَقَّبُ
يَقُولُونَ لَيْلَى عَذَّبَتْكَ بِحُبِّهَا أَلَا حَبْدًا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُعَذَّبُ

فدنا منه وقال : يا قيس هذا كتاب ليلي وهي تقرأ عليك السلام ، فلما
ذكرها رجع إليه عقله واستوى قاعدا وتناول الكتاب وقرأه وجعل
يبكي ويقول :

إِذَا جَاءَنِي مِنْهَا الْكِتَابُ بِعَيْنِهِ
خَاوَتْ بَيْتِي حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْأَرْضِ
فَأَبْكِي لِنَفْسِي رَحْمَةً مِنْ جَفَاءِهَا

وَيَبْكِي مِنَ الْهَجْرَانِ بَعْضِي عَلَى بَعْضِي
وَإِنْ لَأَهْوَاهَا مُسِيئًا وَمُحْسِنًا وَأَقْضِي عَلَى نَفْسِي كَمَا بِالَّذِي تَقْضِي
لَحْتِي مَتَى رُوحُ الرِّضَا لَا يَنَالُنِي وَحَتَّى مَتَى أَيَّامُ سُخْطِكَ لَا تَمْضِي
ثم أجابها عن كتابها بهذه الأبيات :

أَيَّامُهُدِي نَعَى الْحَبِيبِ صَبِيحَةً بِمَنْ وَإِلَى مَنْ جِئْتُما تَشِيَانِ
بِمَنْ لَوْ رَأَاهُ عَانِيًا لَفَدَيْتُهُ وَمَنْ لَوْ رَأَانِي عَانِيًا لَفَدَانِي
فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْحَبِيبِ رِسَالَةً بِأَنْ فُؤَادِي دَائِمُ الْخَفَقَانِ
وَأَنْتِ مَمْنُوعٌ مِنَ النَّوْمِ مُدْنِفٌ وَعَيْنَايَ مِنْ وَجْدِ الْأَسَى يَكْفَانِ
وضمنه :

وَجَدْتُ الْحُبَّ نِيرَانًا تَلْظِي قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ كَمَا وَقُودُ

فَلَوْ كَانَتْ إِذَا اخْتَرَقَتْ تَفَانَتْ وَلَكِنْ كَلَّمَا اخْتَرَقَتْ تَعُودُ
كَأَهْلِ النَّارِ إِذْ نَضَجَتْ جُلُودُ أُعِيدَتْ لِلشَّقَاءِ لَهُمْ جُلُودُ
وضمنه :

أَمَّا وَالَّذِي أَعْطَاكَ بَطْشًا وَقُوَّةً وَصَبْرًا وَأَزْرَى بِي وَنَقَصَ مِنْ بَطْشِي
لَقَدْ مَحَضَ اللَّهُ الْهَوَى لَكَ خَالِصًا وَرَكَّبَهُ فِي الْقَلْبِ مِنِّي بِلاَ غِشٍّ
تَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ الْجُسُومِ وَحَلَّ بِي فَإِنْ مِتُّ يَوْمًا فَاطْلُبُوهُ عَلَى نَعْشِي
سَلِيَ اللَّيْلَ عَنِّي هَلْ أَذُوقُ رُقَادَهُ وَهَلْ لِضُلُوعِي مُسْتَقَرٌّ عَلَى فَرْشِي
وذكر أبو بكر قال: مرَّ بعض الأطباء بحميمهم ، فسأله أبو المجنون ما تعالج ؟
قال: أعالج كل مسحور مجنون ، قال: مكانك لآتيك بآبن لي يهيم في الصحراء
فخرجوا في طلبه فما زالوا يطلبونه حتى قدروا عليه وأدخلوه إلى الطبيب ،
وأقبل يسقيه ، فلما أكثر عايه المعالجة أنشأ يقول :

أَلَا يَا طَبِيبَ الْجِنِّ وَيُحْكُ دَاوِنِي فَإِنَّ طَبِيبَ الْإِنْسِ أَغْيَاهُ دَائِيَا
أَتَيْتُ طَبِيبَ الْإِنْسِ شَيْخًا مُدَاوِيَا بِمَكَّةَ يُعْطَى فِي الدَّوَاءِ الْأَمَانِيَا
فَقُلْتُ لَهُ يَا عَمَّ حُكْمُكَ فَاخْتَكِمُ إِذَا مَا كَشَفْتَ الْيَوْمَ يَا عَمَّ مَا بِيَا
فَخَاضَ شَرَابًا بَارِدًا فِي زُجَاجَةٍ وَطَرَحَ فِيهِ سَلَوَةً وَسَقَانِيَا
فَقُلْتُ وَمَرَضِي النَّاسِ يَسْعَوْنَ حَوْلَهُ

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْكَ مُدَاوِيَا بِأَحْشَاءِ مَنْ تَهْوَى إِذَا كُنْتَ خَالِيَا
فَقَالَ: شِفَاءُ الْحُبِّ أَنْ تُلْصِقَ الْحَشَا

فقال : وأيم الله عاشق ، ودواؤه أن يلقى الحشا بأحشاء من يهوى ،
والجنون يعرض شفتيه ولسانه حتى خلوه ، ثم نهض فمضى على وجهه ،
فبينما هو يدور إذ رأى نارا في سفيح أكمة فـلـدنا منه فإذا هم قوم
رعاة فقال :

رُعَاة اللَّيْلِ مَا فَعَلَ الصَّبَاحُ وَمَا فَعَلْتَ أَوَائِلُهُ الْمَلَاَحُ
وَمَا بَالُ الَّذِينَ سَبَوْا فُؤَادِي أَقَامُوا أَمْ أَجَدَّ بِهِمْ رَوَاَحُ
وَمَا بَالُ النُّجُومِ مُعَلَّقَاتٍ بِقَلْبِ الصَّبِّ لَيْسَ لَهَا بَرَاَحُ
كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلِي الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاَحُ
قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ
لَهَا فَرْخَاتٍ قَدْ تُرِكَ بِقَفْرِ وَعُشُّهُمَا تَصَفَّقُهُ الرِّيَاحُ
إِذَا سَمِعَا هُبُوبَ الرِّيحِ هَبَّآ وَقَالَآ أَثْمَنَا تَأْتِي الرِّوَاَحُ
فَلَا بِاللَّيْلِ نَأَلَتْ مَا تَرَجَّى وَلَا فِي الصُّبْحِ كَانَ لَهَا بَرَاَحُ
رُعَاة اللَّيْلِ كُونُوا كَيْفَ شِئْتُمْ فَقَدْ أَوْدَى بِي الْحُبُّ الْمُتَاَحُ

وقال أبو بكر : إن الجنون بينما هو ذات يوم في أودية مضلة ، قد أسند
ظهره إلى بعض الصَّوَى^(١) حزينا كئيبا ، إذ مر به فارسان فنعيا إليه ليلى
وقالا : مضت لسبيلها ، فخر الجنون مغشياً عليه ، فلما أفاق أنشأ يقول :

أَيَانَعِي لَيْلِي بِجَانِبِ هَضْبَةٍ أَمَا كَانَ يَنْعَاهَا إِلَيَّ سِوَا كَمَا

(١) الصوى : الأعلام من الحجارة ، الواحدة صوة .

وَيَا نَاعِيَّ لَيْلَى بِجَانِبِ هَضْبَةٍ فَمِنْ بَعْدِ لَيْلَى لَا أَمَرْتُ قُوا كَمَا
وَيَا نَاعِيَّ لَيْلَى لَقَدْ هَجَّيْنَا لَنَا تَبَارَيْحَ نَوْحٍ فِي الدِّيَارِ كَلَّا كَمَا
فَلَا عِشْمًا إِلَّا حَلِيفِي مُصِيبَةٍ وَلَا مُتًا حَتَّى يَطُولَ بَلَاكُكُمْ
وَأَسَلَمْتُ الْأَيَّامُ فِيهَا عَجَائِبًا نَبَوْتُكُمْ إِنِّي أُحِبُّ رَدَاكُمْ
أَظُنُّكُمْ لَا تَعْلَمَانِ مُصِيبَتِي لَقَدْ حَلَّ بَيْنَ الْوَصْلِ فِيمَا أَرَاكُمْ

قال ثم مضى حتى دخل الحى بعد ما لم يكن يمر به إلا من بعيد ، فأتى
أهل بيتها فعزاهم فعزوه ، فقال دلوني على قبرها ، فلما عرفه رعى بنفسه
على القبر والتزمه ، وأنشأ يقول :

أَيَا قَبْرَ لَيْلَى كَوْ شَهِدْنَاكَ أَعُولَتْ عَلَيْكَ نِسَاءً مِنْ فَصِيحٍ وَمِنْ عَجْمٍ
وَيَا قَبْرَ لَيْلَى أَكْرَمَنَّ مَحَلَّهَا يَكُنْ لَكَ مَا عِشْنَا عَلَيْنَا بِهَا نَعْمٍ
وَيَا قَبْرَ لَيْلَى إِنَّ لَيْلَى غَرِيبَةٌ بِأَرْضِكَ لَا خِلٌّ لَدَيْهَا وَلَا عَمٌّ
وَيَا قَبْرَ لَيْلَى مَا تَضَمَّنْتَ قَبْلَهَا شَبِيهَاً لِلَّيْلِ ذَا عَفَافٍ وَذَا كَرَمٍ
وَيَا قَبْرَ لَيْلَى غَابَتِ الْيَوْمَ أَثْمُهَا وَخَالَتُهَا وَالْحَافِظُونَ كَلَّهَا الدَّمَمُ

قال أبو بكر : ثم إنه كان يأوى إلى قبر ليلي ويدور منهاره ، حتى جف
جلده على عظمه ، واشتدت بليته ، فمكث على ذلك دهرا ثم إن رجلا
أحب لقاءه والنظر إليه وإلى ناحية نجد ، قال الرجل فلما صرت إلى
بلدهم سرت إلى محلتهم ، فإذا أبوه شيخ كبير وحوله أبناء ذوو أموال

وهيئات ونعم ظاهرة ، فسألتهم عن المجنون فبكوا بكاء شديدا ، ثم قال الشيخ : كان والله أحسن هؤلاء ، وإنه عشق امرأة من قومه لم تكن في المال مثله ، فلم أر تزويجها إياه ، وما أظن أنه يبلغ من حبها ما بلغ ، فلما تمادى به الحب طلبناها فمنعها أبوها ثم زوجها غيره ، فجن ابنى بها وجدا فحبسناه وقيدناه ، فكان يعض لسانه وشفتيه حتى كاد يقطعهما ، فلما رأينا منه ذلك خلينا سبيله فذهب في هذه الفيافي يرعى مع الوحوش ويرد المياه ونحن نبعث إليه كل يوم بطعام وشراب فيوضع له حيث يرى ، فإذا انتحى عنه الواضع جاء وأكل . قلت : فإنى أحب لقاءه فدلوني عليه ، قالوا : اخرج إلى هذه الصحراء فإنك تصيبه هناك . قلت : إذا رأيته كيف أحتال للدنو منه ؟ قالوا : فإذا رأيته فأنشده بعض شعر قيس بن ذريح ، فإنه معجب بشعره . قال الأعرابي : فذهبت فأصبته قاعدا يلعب بالتراب ، فجلست قريبا منه ، فأقبل يلاحظنى ساعة بعد ساعة ، فقلت : أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

وَإِنِّي لَمُفْرٍ دَمَعٌ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ	حِذَارًا لِمَا قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَأَنَّ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي	بِكُنِّي إِلَّا أَنْ مَاحَاتِ حَاسُنُ
وَقَالُوا غَدًا أَوْ بَعْدَ ذَاكَ بَلِيَّةٌ	فِرَاقُ حَبِيبٍ بَانَ أَوْ هُوَ بَانَ

قال : فبكى بكاء شديداً وسالت دموعه على خده وأنشأ يقول :

لِصَفَرَاءٍ فِي قَلْبِي مِنَ الْحُبِّ شُعْبَةٌ
بِهِ حَلَّ بَيْتَ الْحُبِّ ثُمَّ أَنْشَنِي بِهِ
وَمَنْ يَتَهَيَّضُ (١) حَبْنٌ فُوَادُهُ
فَحَرِّ إِنْ صَادَ أَنْ يَذْدَعْنَ بَرْدِمْشَرَبٍ
بَكَتْ دَارُهُمْ مِنْ فَقْدِهِمْ وَتَهَلَّلَتْ
أَهْذَا الَّذِي يَبْكِي مِنَ الْهُونِ وَالْبَلَا
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو حُبَّ لَيْلَى كَمَا شَكَا
يَتِيمٌ جَفَاءَ الْأَقْرَبُونَ فَعَظُمَهُ
أَفِي الْحَقِّ هَذَا أَنْ قَلْبَكَ فَارِغٌ
إِذَا ذُكِرَتْ لَيْلَى أُنْزِلُ لَذِكْرِهَا
عَلَى دِمَائِ الْبُذْنِ إِنْ كَانَ حُبُّهَا
دَعُونِي فَمَا عَنْ رَأْيِكُمْ كَانَ حُبُّهَا
وقال أيضاً :

لَمْ تَزَلْ مُقَلَّتِي تَفِيضُ بِدَمْعٍ
مُقَلَّةٌ دَمْعُهَا حَثِيثٌ وَأُخْرَى
مَا جَرَتْ هَذِهِ عَلَى الْخُلْدِ حَتَّى
كَلَّمَا جَفَّ دَمْعُهَا أَسْعَدَتْهَا
لَحِقَتْ تِلْكَ بِأَلَّتِي سَبَقَتْهَا

(١) يتهَيَّض : يكسر .

(٢) يريم : يبرح وينقطع .

دَمْعَةٌ بَعْدَ دَمْعَةٍ فَإِذَا مَا لَحِقَتْ تِلْكَ هَذِهِ أَخْذَرَتْهَا

قال الأعرابي : فأقسمت عليه أن ينشدني بعض أشعاره ، فأنشد يقول :

لَشَنْ كَثُرَتْ رُقَابُ لَيْلَى فَطَالَ مَا كَهَوْتُ بِلَيْلَى مَا كُنْ رَقِيبُ

وَأِنْ حَالَ يَأْسُ دُونَ لَيْلَى فَرُبَّمَا أَتَى الْيَأْسُ دُونَ الشَّيْءِ وَهُوَ حَبِيبُ

وَمُنَيْتِي حَتَّى إِذَا مَا رَأَيْتَنِي عَلَى شَرَفٍ لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبُ

صَدَدْتُ وَأَسْمَتُ الْعِدَاةَ بِهَجْرِنَا أَثَابَكَ فِيمَا تَصْنَعِينَ مُثِيبُ

أَبْعِدْ عَنْكَ النَّفْسَ وَالنَّفْسُ صَبِيحَةٌ بِذِكْرِكَ وَالْمَشَى إِلَيْكَ قَرِيبُ

مَخَافَةٌ أَنْ تَسْعَى الْوُشَاةُ مَظْنَةً وَإِكْرَامُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبُ

أَمَّا وَالَّذِي يَبْلُو السَّرَائِرَ كُلَّهَا وَيَعْلَمُ مَا تُبْدِي بِهِ وَتَغِيبُ

لَقَدْ كُنْتُ مِمَّنْ تَضْطَفِي النَّفْسُ خِلَةً لَهَا دُونَ خِلَانِ الصَّفَاءِ حُجُوبُ

وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِيكَ حَتَّى كَأَنَّمَا عَلَى بَظْهَرِ الْغَيْبِ مِنْكَ رَقِيبُ

تَلَجِّينَ حَتَّى يَذْهَبَ الْيَأْسُ بِالْهَوَى وَحَتَّى تَكْأُدُ النَّفْسُ عَنْكَ تَطِيبُ

سَأَسْتَعْظِفُ الْأَيَّامَ فِيكَ لَعَلَّهَا بِيَوْمٍ سُرُورِي فِي هَوَاكَ تَثُوبُ

وقال أيضا :

أَلَا هَلْ طُلُوعُ الشَّمْسِ يُهْدِي تَحِيَّةً إِلَى آلِ لَيْلَى أَوْ دُنُو غُرُوبِهَا

أَتُضْرَبُ لَيْلَى إِنْ مَرَرْتُ بِذِي الْغَضَى

وَمَا ذَنْبُ لَيْلَى إِنْ طَوَى الْأَرْضَ ذِيهَا

أَجَلْ عَلَى الرَّجْمِ إِنْ قُلْتُ حَبْدًا غُرُوبُ ثَنَائِيَا أَمْ عَمْرٍو وَطِيبُهَا

وقال أيضا :

فَيَا لَيْتَ لَيْلَى وَافَقَتْ كُلَّ حَجَّةٍ قَضَاءً عَلَى لَيْلَى وَإِنِّي رَفِيقُهَا
فَتَجَمَعْنَا مِنْ تَحْلَتَيْنِ ثَنِيَّةٍ يَغْصُ بِأَعْضَادِ الْمَطِيِّ طَرِيقُهَا
فَأَلْقَاكَ عِنْدَ الرُّكْنِ أَوْ جَانِبِ الصَّفَا

وَيُسْغِلُ عَنَّا أَهْلَ مَكَّةَ سُوقُهَا
فَأَنْشِدُهَا أَنْ نَحْوِي الْهُونَ وَالْهَوَى وَتَمْنَحُ نَفْسًا طَالَ مَطْلًا حُقُوقُهَا
قال : فلما فرغ انصرفت إلى الحى وحدثتهم بحديثه وما أنشدنى من شعره ، فقالوا لى : ويحك إن رجعت إليه فانظر عسى أن تأخذ قصيدته التى قالها فى الثمدى فقد جهدنا على نسخها فلم نقدر عليها ، قال الأعرابى فمررت إليه ثانيا فلم أزل أطلبه حتى وجدته على قوز^(١) من الأرض قد كومتته الريح كوما يخط بأصبعه فيه ، فدنوت وجلست إليه وهو يلاحظنى فقلت : أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

فَوَاكِبِي وَعَاوَدَنِي رَوَاعِي وَكَانَ فِرَاقُ بُنَى كَالْحِدَاعِ
تَكَنَّفَنِي الْوُشَاةُ فَأَزْجَجُونِي فَيَا لَلَّهِ لِلْوَأَشِيِّ الْمُطَاعِ
فَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ أَلُومُ نَفْسِي عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسَ بِمُسْتَطَاعِ
كَمَغْبُوتٍ يَمُضُ عَلَى يَدَيْهِ تَبَيَّنَ غَبْنُهُ بَعْدَ الْبَيَاعِ
إِذَا مَا تَذَكَّرِينَ تَحْنُ نَفْسِي حَنِيفَ الْإِلْفِ يَطْرَبُ لِلِسَّمَاعِ

(١) القوز : الكتيب ، وجمعه أقواز وقيزان .

قال المجنون : بلى والله واستعبر حيناً ، ثم قال : أنا أشعر منه
حيث أقول :

فَوَاللَّهِ ثُمَّ وَاللَّهِ إِنِّي لَدَائِبًا أَفَكَّرُ مَا ذَنَّبِي إِلَيْكَ فَأَعْجَبُ
وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي عِلَامَ هَجَرْتَنِي وَأَيَّ أُمُورٍ فِيكَ بِالَيْلِ أَرْكَبُ
أَقْطَعُ حَبْلَ الْوَصْلِ فَالْمَوْتُ دُونَهُ

وَأَشْرَبُ كَأَسَا مِنْكُمْ لَيْسَ يُشْرَبُ
أَمْ أَهْرَبُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مُجَاوِرًا أَمْ أَفْعَلُ مَاذَا أَمْ أَبُوحُ فَأُغْلَبُ
فَأَيْهِمَا يَا لَيْلُ مَا تَفْعَلِينَ قَاوِلُ مَهْجُورٍ وَآخِرُ مُتَعَبٍ
فَلَوْ تَلْتَقَى أَرْوَاحُنَا بَعْدَ مَوْتِنَا

وَمِنْ دُونِ رَمْسَيْنَا مِنَ الْأَرْضِ مَنْكِبُ
أَظَلَّ صَدَى رَمْسِي وَإِنْ كُنْتُ رَمَّةً
لَدَى صَوْتِ لَيْلَى يَهْشُ وَيَطْرَبُ

فإن لم أكن أشعر منه في هذا ، فأنا أشعر منه حيث أقول :

أَلَا يَأْنَسِيْمَ الرِّيحِ حُكْمَكَ جَائِرُ عَلَى إِذَا أَرْضَيْتَنِي وَرَضَيْتُ
أَلَا يَأْنَسِيْمَ الرِّيحِ كَوْنُ أَنْ وَاحِدًا مِنَ النَّاسِ يَبْلِيهِ الْهَوَى لَبَلِيْتُ
فَلَوْ خُلِطَ السُّمُّ الزُّعَافُ بِرِيقِهَا تَمَصَّصْتُ مِنْهُ نَهْلَةً وَرَوَيْتُ

ثم قال : فإن لم أكن أشعر منه في هذا فأنا أشعر منه حيث أقول :
وَعَارِضُنَ بِالْعُقْيَانِ كُلِّ مُفْلَجٍ بِهِ الظَّمُّ لَمْ تَقْلُلْ كَهْنٌ غُرُوبُ

رَضَابٌ كَرِيحِ الْمِسْكِ يَجْأُومُوتُونَهُ مِنْ الضَّرِّ وَأَوْفَرُخِ الْبَشَامِ قَضِيبٌ
ثم غشي عليه ، فلما أفاق قلت : أحسن والله قيس بن ذريح
حيث يقول :

هَبُونِي امْرَأً إِنْ تُحْسِنُوا فَهَوَ شَاكِرٌ

لِذَاكَ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنُوا فَهَوَ صَافِحٌ

فَإِنْ يَكُ أَقْوَامٌ أَشَارُوا بِقَتْلِهَا
فَمَا وَجَدْتُ وَجْدِي بِهَا أُمٌّ وَاحِدٍ
وَجَدْتُ بِهَا وَجْدَ الْمُضِلِّ رِكَابَهُ
فَقَالَ أَنَا أَشْعَرُ مِنْهُ حَيْثُ أَقُولُ :

وَأَذْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا فَتَنْتَنِي
بِقَوْلٍ يُحِلُّ الْعَصْمَ سَهْلَ الْبَاطِحِ
تَجَافَيْتَ عَنِّي حَتَّى لَأِي حِيَلُهُ

وَعَادَرْتُ مَا عَادَرْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ

فقلت : سألتك بحق قبر ليلي أن تنشدني قصيدتك التي قلتها في التمدن

وقد كنت أخذت معي دواة وقرطاساً فأنشد :

تَذَكَّرْتُ لَيْلِي وَالسَّيِّئِينَ الْخَوَالِيَا وَأَيَّامَ لَا تَخْشَى عَلَى اللَّهِ نَاهِيَا
وَيَوْمَ كَظَلَّ الرُّمَحُ قَصَرْتُ ظِلَّهُ بَلَيْلِي فَلَهَانِي وَمَا كُنْتُ لَاهِيَا
بِشَمْدِينَ لَا حَتَّ نَارُ لَيْلِي وَصُحْبَتِي بِذَاتِ الْغَضَى تَرْجَى الْمَطِيَّ النَّوَاحِيَا

فَقَالَ بَصِيرُ الْقَوْمِ لَمَحْتُ كَوْكَبًا
فَقُلْتُ لَهُ بَلْ نَارُ لَيْلَى تَوَقَّدَتْ
فَلَيْتَ رِكَابَ الْقَوْمِ لَمْ تَقْطَعْ الْغَضَى

وَلَيْتَ الْغَضَى مَاشَى الرَّكَّابَ لَيْلَا

فَيَا لَيْلُ كَمْ مِنْ حَاجَةٍ لِي مُهِمَّةٍ
خَلِيلِي إِنْ لَا تَبْكِيَانِي أَلْتَمِسُ
فَمَا أَشْرَفُ الْأَبْقَاعِ إِلَّا صَبَابَةٌ
وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَتَيْنِ بَعْدَ مَا
لَحَا اللَّهُ أَقْوَامًا يَقُولُونَ إِنَّا
وَعَهْدِي بَلِيلِي وَهِيَ ذَاتُ مُوَصَّدٍ
فَشَبَّ بَنُو لَيْلَى وَشَبَّ بَنُو ابْنِهَا
إِذَا مَا جَلَسْنَا مَجْلِسًا نَسْتَلِذُهُ
سَقَى اللَّهُ جَارَاتِ لَيْلَى تَبَاعَدَتْ
وَلَمْ يُنْسِنِي لَيْلَى افْتِقَارُهُ وَلَا غِنَى
وَلَا نِسْوَةٌ صَبَغْنَ كَيْدَاءَ جَلْعَدًا
خَلِيلِي لَا وَاللَّهِ لَا أُمْلِكُ الَّذِي
قَضَاهَا لَغَيْرِي وَابْتَلَانِي بِحُبِّهَا
وَخَبَّرْتُمَنِي أَنَّ تَيْمَاءَ مَنْزِلُ

إِذَا جِئْتُكُمْ بِاللَّيْلِ لَمْ أُدْرِ مَا هِيَ
خَلِيلًا إِذَا انْزَفْتُ دَمْعِي بِكَى لِيَا
وَلَا أَنْشُدُ الْأَشْعَارَ إِلَّا تَدَاوِيَا
يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنَّ لَا تَلَاقِيَا
وَجَدْنَا طَوَالَ الدَّهْرِ لِلْحُبِّ شَافِيَا
تَرُدُّ عَلَيْنَا بِالْعَشِيِّ الْمَوَاشِيَا
وَأَعْلَاقُ لَيْلَى فِي فُؤَادِي كَمَا هِيَ
تَوَاشَوْا بِنَا حَتَّى أَمَلُّ مَكَانِيَا
بِهِنَّ النَّوَى حَيْثُ اخْتَلَنَ الْمَطَالِيَا
وَلَا تَوْبَةٌ حَتَّى اخْتَضَنْتِ السَّوَارِيَا
لِتُشْبِهَ لَيْلَى ثُمَّ عَرَضْنَهَا لِيَا
قَضَى اللَّهُ فِي لَيْلَى وَلَا مَا قَضَى لِيَا
فَهَلَّا بِشَيْءٍ غَيْرِ لَيْلَى ابْتِلَانِيَا
لِلَّيْلِ إِذَا مَا الصَّيْفُ أَلْقَى الْمَرَاسِيَا

فَهَذِي شُهُورُ الصَّيْفِ عَنَّا قَدْ انْقَضَتْ فَمَا لِلنَّوَى تَرْمِي بِلَيْلِي الْمَرَامِيَا
فَلَوْ أَنَّ وَاشٍ بِأَلْيَا مَسَّةٍ دَارُهُ

وَدَارِي بِأَعْلَا حَضَرَ مَوْتَ أَهْتَدَى لِيَا
وَمَاذَا لَهُمْ لَا أَحْسَنَ اللَّهُ حَالَهُمْ مِنْ الْحَطِّ فِي تَصْرِيمٍ لَيْلِي حِبَالِيَا
وَقَدْ كُنْتُ أَعْلُو حُبِّ لَيْلِي فَلَمْ يَزَلْ

بِي النَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ حَتَّى عَلَانِيَا
يَكُونُ كَفَافًا لَا عَلَى وَلَا لِيَا
وَلَا الصُّبْحُ إِلَّا هَيَّجًا ذِكْرَهَا لِيَا
سُهَيْلُ لِأَهْلِ الشَّامِ إِلَّا بَدَا لِيَا
مِنَ النَّاسِ إِلَّا بَلَّ دَمْعِي رِدَائِيَا
مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا بَتُّ لِلرَّيْحِ جَانِيَا
عَلَى فَلَنْ تَحْمُوا عَلَى الْقَوَافِيَا
فَهَذَا لَهَا عِنْدِي فَمَا عِنْدَهَا لِيَا
وَبِالشَّوْقِ مِنِّي وَالْغَرَامِ قَضَى لِيَا
أَشَابَ فُوَيْدِي ^(١) وَاسْتَهَانَ فُوَادِيَا
وَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا لَا أَعُدُّ اللَّيَالِيَا
أُحَدِّثُ عَنْكَ النَّفْسَ بِاللَّيْلِ خَالِيَا
بَوَجْهِى وَإِنْ كَانَ الْمُصَلَّى وَرَائِيَا
فَيَارَبِّ سَوِّ الْحُبَّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
فَمَا طَلَعَ النَّجْمُ الَّذِي يُهْتَدَى بِهِ
وَلَا سِرْتُ مِيْلًا مِنْ دِمَشْقٍ وَلَا بَدَا
وَلَا سُمِّيْتُ عِنْدِي لَهَا مِنْ سَمِيَّةٍ
وَلَا هَبَّتِ الرِّيحُ الْجَنُوبُ لِأَرْضِهَا
فَإِنْ تَمْنَعُوا لَيْلِي وَتَحْمُوا بِلَادَهَا
فَأَشْهَدُ عِنْدَ اللَّهِ أَنِّي أَحِبُّهَا
قَضَى اللَّهُ بِالْمَعْرُوفِ مِنْهَا لَغَيْرِنَا
وَإِنَّ الَّذِي أَمَلْتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ
أَعُدُّ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ
وَأُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي
أَرَانِي إِذَا صَلَّيْتُ يَمُمْتُ نَحْوَهَا

وَمَا بِيَ إِشْرَاكَ وَلَكِنْ حُبَّهَا وَعُظْمَ الْجَوَىٰ أَعْيَا الطَّبِيبَ الْمَدَاوِيَا
أَحِبُّ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا وَافَقَ أَسْمَاهَا أَوْ أَشْبَهَهُ أَوْ كَانَ مِنْهُ مُدَانِيَا
خَلِيلِي لَيْلَىٰ أَكْبَرُ الْحَاجِّ وَالْمَنَى فَمَنْ لِي بِلَيْلَىٰ أَوْ فَمَنْ ذَا لَهَا بِيَا
لَعَمْرِي لَقَدْ أَبْكَيْتَنِي يَا حَمَامَةَ الْعَقِيقِ وَأَبْكَيْتِ الْعُيُونَ الْبَوَاكِيا
خَلِيلِي مَا أَرْجُو مِنَ الْعَيْشِ بَعْدَ مَا أَرَىٰ حَاجَّتِي تُشْرَىٰ وَلَا تُشْتَرَىٰ لِيَا
وَتُجْرِمُ لَيْلَىٰ مُنَّمْ تَزْعُمُ أَنَّي سَلَوْتُ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَى النَّاسِ مَا بِيَا
فَلَمْ أَرَ مِثْلَيْنَا خَلِيلِي صَبَابَةٍ أَشَدَّ عَلَى رَغَمِ الْأَعَادِي تَصَافِيَا
خَلِيلَانِ لَا نَرْجُو اللَّقَاءَ وَلَا نَرَى خَلِيلَيْنِ لَا يَرْجُونَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
وَإِنِّي لَا أَشْتَحِيكَ أَنْ تَعْرِضَ الْمَنَى بِوَصْلِكَ أَوْ أَنْ تَعْرِضِي فِي الْمَنَى لِيَا
يَقُولُ أَنْاسٌ عَلَّ مَجْنُونٌ عَامِرٍ يَرُومُ سُلُوكًا قُلْتُ أَنِّي لِمَا بِيَا
بِيَ الْيَأْسُ أَوْ دَاءُ الْهِيَامِ أَصَابَنِي فَإِيَّاكَ عَنِّي لَا يَكُنْ بِكَ مَا بِيَا
إِذَا مَا اسْتَطَالَ الدَّهْرُ يَأْمَ مَالِكٍ فَشَأْنُ الْمَنَايَا الْقَاضِيَاتِ وَشَانِيَا
إِذَا اكْتَحَلْتُ عَيْنِي بِعَيْنِكَ لَمْ تَزَلْ بِخَيْرٍ وَحَلَّتْ غَمْرَةٌ عَنْ فُؤَادِيَا
فَأَنْتِ الَّتِي إِنْ شِئْتَ أَشَقَيْتِ عَيْشَتِي وَأَنْتِ الَّتِي إِنْ شِئْتَ أَنْعَمْتَ بِأَلِيَا
وَأَنْتِ الَّتِي مَآمِنَ صَدِيقٍ وَلَا عِدَا يَرَىٰ نِضْوًا مَا أَبْقَيْتِ إِلَّا رَثِي لِيَا
أَمْضِرُوبَةً لَيْلَىٰ عَلَى أَنْ أَرْوَرَهَا وَمُتَّخِذَةً ذَنْبًا لَهَا أَنْ تَرَانِيَا
إِذَا سِرْتُ فِي الْأَرْضِ الْفَضَاءِ رَأَيْتُنِي

أَصَانِعُ رَحْلِي أَنْ يَمِيلَ حِيَالِيَا

يَمِينًا إِذَا كَانَتْ يَمِينًا وَإِنْ تَكُنْ
وَإِنِّي لَأَسْتَعِشِّي إِيَّاهُ وَمَا بِي نَعْسَةٌ
هِيَ السَّحَرُ إِلَّا أَنَّ السَّحَرَ رُقِيَّةٌ
إِذَا نَحْنُ أَدْهَلْنَا وَأَنْتِ أَمَامَنَا
ذَكَتْ نَارُ شَوْقِي فِي فُؤَادِي فَأَصْبَحَتْ

لَهَا وَهَجٌ مُسْتَضْرَمٌ فِي فُؤَادِيَا
عَلَيْنَا فَقَدْ أَمْسَى هَوَانًا يَمَانِيَا
وَحُبَّ إِلَيْنَا بَطْنُ نِعْمَانَ وَادِيَا
عَلَى الْهَوَى لَمَّا تَغْنَيْتُمَا لِيَا
وَأَبْكَيْتُمَا نِي وَسَطَ صَحْبِي وَلَمْ أَكُنْ

أَبَالِي دُمُوعَ الْعَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا
بِلَحْنَيْكَمَا ثُمَّ اسْجَعَا عَلَانِيَا
لِحَاقًا بِأَطْلَالِ الْغَضَى فَاتَّبَعَانِيَا
وَمَا لِلصَّبَا مِنْ بَعْدِ شَيْبِ عَلَانِيَا
إِلَى مَنْ تَشَبَّهَ أَوْ لِمَنْ أَنْتِ وَاشِيَا
فَمَا ظَعَنَ الْحُبِّ الَّذِي فِي فُؤَادِيَا
فَزِنِّي بِعَيْنَيْهَا كَمَا زِنْتَهَا لِيَا
فَإِنِّي بِلَيْلِي قَدْ لَقِيتُ الدَّوَاهِيَا

وَيَا أَيُّهَا الْقُمْرِيَّتَانِ تَجَاوَبَا
فَإِنْ أَنْتُمَا اسْتَطَرَبْتُمَا أَوْ أَرَدْتُمَا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي مَا لَيْلِي وَمَا لِيَا
أَلَا أَيُّهَا الْوَاشِي بَلَيْلِي أَلَا تَرَى
لَنْ ظَعَنَ الْأَخْبَابُ يَا أُمَّ إِمْلَاكِ
فِيَارَبِّ إِذْ صَيَّرْتَ لَيْلِي هِيَ الْمُنَى
وَالَا فَبَغَضَهَا إِلَيَّ وَأَهْلَاهَا

عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ

وَإِنْ كُنْتُ مِنْ لَيْلَى عَلَى الْيَأْسِ طَاوِيَا
خَلِيلِي ابْنُ ضَنْوَا بَلِيلِي فَقَرِّبَا لِي النَّعْشَ وَالْأَكْفَانَ وَاسْتَغْفِرَا لِيَا
قال الأعرابي : فلما أتم هذه القصيدة ظهرت له ظبية فوثب في طلبها
والتفت إلى وقال : السلام عليك فما أراك تراني بعد هذا أبدا .

قال الأعرابي ثم مضيت إلى الحى فأخبرتهم خبره وأنشدتهم قصيدته
فكتبوها فلما كان من الغد بكرت إليه وطلبتة فلم أقدر عليه فانصرفت إلى
الحى وأعلمتهم ، فقام إخوته وبنو عمه وأهل بيته فطلبناه يومنا وليلتنا فلما
أصبحنا هبطنا إلى واد كثير الحجارة والرمل إذا نحن به ميتا ، وقد كان خط
بأصبعه عند رأسه هذين البيتين :

تَوَسَّدَ أَحْجَارَ الْمَهَامِهِ وَالْقَفْرِ وَمَاتَ جَرِيحَ الْقَلْبِ مُنْدَمِلَ الصَّدْرِ
فِيَا لَيْتَ هَذَا الْحَبَّ يَعْشَقُ مَرَّةً فَيَعْلَمُ مَا يَلْقَى الْمُحِبُّ مِنَ الْمَجْرِ
فرثيناه وعلت أصواتنا بالبكاء وحملناه إلى الحى ، فبكى عليه الغريب
والقريب وكل من سمع باسمه يوما ، ثم غسلناه وكفنناه ودفنناه إلى جانب قبر
ليلى ، رحمهما الله تعالى .

قال أبو بكر : لما مات الملوح أبو المجنون بلغه ذلك فأتى قبره وكانت
له ناقة فنحرها على قبره ، وكانت العرب هذا شأنها تفعل ذلك إذا مات
منهم أحد ، وأنشأ يقول :

عَقَرْتُ عَلَى قَبْرِ الْمَلُوحِ نَاقَتِي بِذِي الرَّمْثِ لَمَّا أَنْ جَفَاهُ أَقَارِبُهُ
فَقُلْتُ لَهَا كُونِي عَقِيرًا فَإِنَّ غَدَاةَ غَدٍ مَاشٍ وَبِالْأَمْسِ رَاكِبُهُ
فَلَا يُبْعِدَنَّكَ اللَّهُ يَا ابْنَ مَرْأَسٍ فَكُلْ أَمْرِي لِلْهُوْتِ لَا بُدَّ شَارِبُهُ

قال أبو بكر الوالي : رحمه الله تعالى هذا جملة ماتناهي إلينا من أخبار
المجنون وأشعاره وما كان منحولا من قصيدة أو خبر أعرضنا عن كتبه .
والله سبحانه وتعالى أعلم .

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب [ديوان قيس بن الملوح] الشهير بمجنون
ليلي العامرية مصححاً بمعرفتي ؟

أحمد سعد علي
من علماء الأزهر الشريف

القاهرة في يوم الخميس { ٢٠ رمضان سنة ١٣٥٨ م }
{ ٢ نوفمبر « ١٩٣٩ م }

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبي .

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران